alexandra.ahlamontada.com

منتدى مكتبة الإسكندرية

رواية

أمير الأنتقام الحديث

محمد مستجاب

أمير الانتقام ... الحديث

alexandra.ahlamontada.com
منتدى مكتبة الأسكندرية

محمد مستجاب

سافر معوض وساب الغلب لأصحابه واللي معاه غلب ينام
به ويصحى به، وهي صفات مبكرة لأمير الانتقام
الحديث ... مع أني لم أكن أعرف أن اسمه: معوض.

البدائية... محاولة للإدراك

● ●كان المقدس بسادة " ننطقها بصـــادة، يرتكـــز بظهره على حائط معمل البيض الذي يمتلكه، ويظل ممعنًـــا في الذاهب والقادم، يرد التحية على العابرين حتى ولو لم يقم أحدهم بإلقائها، كان المقدس بصادة زاهدًا في العمل، يتـــرك عملية تفريخ الكتاكيت وتسويق الناتج منها لإخوتـــه وأولاده، يظل يداور الشمس ليتقي حرارتها من مكان ظليل إلى آخـــر – حول حوائط المعمل – في كسل وخيم.

لكنه، حين يتجمع أفراد حوله يشاغبونه ويشاكســونه ويستثيرونه، تشتعل فيه شرارة النشاط، وبالفعل يشمر عـــن أكمام جلبابه الترابي الواسع وينادي على أي واحـــد يكـــون داخل المعمل كي يحضر لـــه العناصـــر اللازمـــة: ديـــك، ودجاجة، وما تكاد سيقان الديك والدجاجة تصل إلى الأرض أمام جلستنا الصبيانية العابثة حول المقدس بصـــادة، حتـــى يندفعا طائرين على الأرض في سرعة مذهلة، حيث يهربان إلى غابات النباتات المجاورة في الحقول ● ●

حينئذ، يقوم المقدس بصادة مستندًا على الحائط فـــي معاناة الكسول الذي يكاد يكون كسيحًا، ويظل يتمـــتم ويقـــرأ

ويعزم، وبعد وقت صـــامت مشـــحون بالريبـــة والســـكون والتوقيع، يأتي الديك منسلا، وتأتي الدجاجة منسلة، ليقفا أمام المقدس بباوي في امتثال وقد انحنت رأسهما خضوعًا.

قلنا – نحن صبيان وفتيان ذاك العصر – إن المقدس بصادة كان يدرب الدجاجة والديك على هذا السلوك، جـــائز جدًا، وهذا ما نراه الآن من فنـــاني الســـيرك علـــى شاشـــة التليفزيون، في استعراض مذهل لقدرتهم على الهيمنة علـــى الحيوانات المدربة على تصرفات مثيرة وقلنا – وقد ثبت لنا بعد ذلك أن هذا الكلام غير صحيح بالمرة – نحـــن صـــبيان وفتيان منطقة معمل الكتاكيت، – أيامها – أنه لا يمكن لواحد نصراني أن يكون ذا سطوة على الحيوانات، ومعلوماتنـــا – في ذلك العصر– كانت تعتقـــد أن الشـــياطين والحيوانـــات لا تستجيب لغيرنا نحن المسلمين تحت وقع نصوص الأدعية والأحجبة والتمائم، حتى أن أحدنا من باب التعصب الحاد – هاجم المقدس بصادة ليتهمه بخفة اليد، لقد اختلط علينا الأمر الذي يفسر إخراج الكتاكيت مـــن الأنـــف، والدجاجـــة مـــن المنديل، بالأمر الذي يتم فيه الهيمنة علـــى ديـــك ودجاجـــة ليخرجا من أدغال الحقول فيقفا في استكانة وامتثـــال أمـــام

المقدس بصادة، والذي اتضح لنا – خلال احتدامنا في الحديث عن معجزاته – أنه نصاب، المقدس بصادة لم يقدس – أي لم يذهب إلى بيت المقدس ليؤدي واجب التقديس المناسب للملة التي ينتمي إليها – وكان هذا الاكتشاف قد أثار ضجيجًا صغيرًا بيننا وبينه، وبالتالي فقد زعل بصادة – لم أقل المقدس – وداهمه إحباط واضح، توقف عن الرد على أية أسئلة أو تحايًا.

غير أن بصادة عاد فجأة إلى نشاطه وحماسه، وتجمعنا حوله لنرى ما أثار فينا دهشة طاغية: قالب طوب ني "في الفصحى قالب طوب أخضر أو لبن" ثم قالب طوب أحمر، المسافة بينهما تصل إلى نصف المتر، وظل بصادة يعزم ويقرأ ويصرخ في القالب الني، وإذ بهذا القالب يتحرك، مرة أخرى: يتحرك على الأرض حركة واضحة، حتى يصل إلى القالب الأحمر، ثم يندفع إليه ليصكه، يتراجع للخلف – القالب الني– ويعود فيخبط القالب الأحمر الصلب ... ليتحطم، ويظل القالب الني جامدًا في الساحة على أشلاء القالب الأحمر الشهيد.

لم يكن المقدس بصادة وحده القادر على فعل ذلـك، غجرية تأتي وقت أن تأتي حاملة الباقوطـة – أي المقطـف الصغير – الذي تحمل داخله أدوات ضـرب الـودع، كـان وجهها – بعد أن يكفهر ويتلوى ويتغضن، وبعـد أن تتسـع عيونها وتتغلق ثم تتفتح عن آخر مدى لنـوع مـن الحـول الأحمر، أي بعد أن يوشوش أي واحد مـن الـراغبين فـي وشوشة الدكر وإلقاء الودعة على قماشتها، تبدأ الغجرية فـي البرطمة والصراخ وتناثر رشاش السوائل من فمها، وخـلال هذه الحالة العصبية تكشف عن مستقبل صاحب الوشوشـة، ومع شرح تفاصيل هذا المستقبل الغامض – تعـرج علـى حاضره وماضيه لتعلن أنه لص بهائم، أو سارق كيزان أذرة، أو أنه شاذ الأغراض مع صغار الـذكور، أو أنـه منعـدم الذكورة أصلا، هذه الغجرية – التي أثارت فينا دهشة حـول قدرتها أن تعرف ما قد يكون خافيًـا عنـا فـي الماضـي والحاضر، وما هو سيظل خافيًا عنا فـي المسـتقبل، هـذه الغجرية التي تأتي إلى قريتنا في أي وقـت دون أن نسـعى إليها، كانت بالتأكيد تهيمن على نوع من أفـراد المخـابرات أو المباحث لتعرف ذلك، لكننا لم نصـل إلـى إجابـة فقـد

وجدوها قتيلة ذات صيف ملتهب بين أكوام البوص خلف مبنى السلخانة، ومازلت أدور وألف حول قصتها لكني – في كل مرة أود كتابتها أتوقف، إنها شكل من أشكال قصة الشيخشيخة ليوسف إدريس.

بدأ ذلك كله – ولاسيما الذي حدث في بواكير حياتي – يداهم استدرجات الماضي خلال مثابرتي العصرية سعيًا إلى العلم: التفكير والتخطيط والاستنتاج ووجهة النظر، مع أهمية التوقف عن الغيبيات والخرافات، أعرف أن يكون ذلك في نظم الإدارة والتشغيل وجرد المخازن وإصدار القرارات والتصنيع والتصدير والاستيراد واستخدام المعامل وترتيب الأولويات، لكني ماذا أفعل في الكتابة؟ لا أستطيع أن أكتب لمجرد الرغبة في الكتابة، الاستحمام والتطهر عنصران ضروريان للدخول في عالم الكتابة، إنها نظام نفسي شخصي يمكن إدراكه علميًا، فماذا لو أن عيني رفت أو أحسست برغبة عارمة في هرش كفوفي بما يعني أن شيئًا سوف يحدث؟؟ فماذا أفعل إذن إذا أعلنت الآن أن العين التي ترف، والكف التي أهرشها إنما هي تجربة مريرة – أو جميلة جدًا – لي، إذ كثيرا – بل في كل مرة – يحدث ما لا أتوقع.

ذات مرة ظلت عيني ترف، انتظرت خطابًا في الصباح، ثم زائرا في الظهيرة، ثم أي خبر مرعب آخر النهار، فظلت عيني ترف، وبعد أن استغرقت في النوم ليلا، قامت ابنتي بإيقاظي، كان الصديق الياباني توكانو – الغائب عني من سنوات حتى أني نسيته – ينتظرني خارج حجرتي، وبعد منتصف الليل، وفي تهذيب شديد أعطاني كمية دولارات – ليست كثيرة جدًا – ثمنًا لقصة لي نشرها في اليابان، ومضي ... فجلست وسط الشقة أسعى بين عيوني الجامدة دون أن ترف، وكفي التي توقفت عن إثارة رغبتي في هرشها.

وعلى ذلك فإن الانشغال الشديد بالعلم سوف يدفعني للإلحاح على رفض هذا العالم الذي يبدو متخلفًا بما فيه من ظواهر غيبية – وغبية، فالعقل المعاصر الذي أنتج من أدوات وآلات الكترونية، ومن تحكم من بعيد، ومن إنجازات تداهم العقل المعاصر نفسه، يريدني أن أمتثل له تاركًا تلك الأمور الأخرى – غير المبررة، أو غير المفسرة – جانبًا، وهذا يعني – في أخطر معانيه – تجفيف العقل من صبيانيته المبكرة، والإلحاح العلمي على مداركه، فكيف إذن يتسنى لك

أن تشعر بتلك السعادة الغامضة المبهمة مقابل إعــلاء شـــأن العقل – في الفنون بالذات؟؟

كان ذلك – كما هو واضح – اضطرابًا لعقلية واحد مثلي لم يستوعب التفكير العلمي، ذلك أنني مازلــت أرقــب واحدًا من الرفاعية وهو يتمتم ويدعو ويصرخ كي نراه قادمًا من العقد – أي السطح – وهو يتلوى على الحائط: إنه ثعبان، ذلك الثعبان الذي يظل يسعى حتى يلتف حول نفسه أمام كف الرفاعي المنهمك في إصدار أوامره وأدعيته وتعليماته؟؟ في صحراء أسوان كنا نعاني – أثناء العمل في مشـــروع الســد العالي – من ثعبان قصير معقوف هـــو الطريشـــة، كانـــت الطريشة – أي تلك التي لا تسمع ولا تخضع لأحـــد: تقفـــز فجأة مندفعة من الأرض إلـــى الجســد مباشـــرة، وعقرتهـــا السريعة المباغته في أي مكان في جسد الضحية تســتوجب الاستئصال فورًا، نعم: كان ثمة عدد من ضـــحايا الطريشـــة يعمل معنا: مبتوري الأيدي أو السيقان، وعندما عشنا فتـــرة بالقرب من رجال الحدود – الهجانة – عرفنا أن أخطر مـــا يواجهونه: الطريشة والذئب الجربان" الذي يـــوازي الكلـــب السعران في مفاهيمنا"، ولذا فقد كان لازمًا أن يقـــوم أفـــراد

يرتدون ملابس واقية على الرءوس "تذكرك بملابس مطفئ الحرائق" بدق الصفائح وإشعال نيران البوص والأغصان وإطلاق سحب الدخان في أي موقع لأي محجر جديد مزمع افتتاحه، والقصد بذلك طرد أنواع الثعابين – الطريشة بالذات – من الموقع.

لكن أمرًا آخر طرأ، ذلك أن الطريشة كانت تهرب إلى عمق الرمال وبطنها دون سطحها، ولذا ظهر أفراد من أبناء النوبة وأسوان وقنا لهم دراية في استخراج الطريشة، كانوا أصلا من هؤلاء القادرين على تتبع وتحليل الأثر والذين يطلق عليهم: العسس، يظل الواحد منهم يمعن في الأرض والصخور وجذور النبات ليستقرئ ما يكون كامنًا فيه، نحن المتعلمين – لا ندرك ذلك، وننظر حيث ينظرون فلا نرى شيئًا، وكان الواحد منهم – حين يقف مشيرًا على الجميع بالتزام الصمت – يكاد يكون صافيًا رائقًا ترى العالم كله من جسده البللوري، ويظل يتمتم ويقرأ حتى تخرج الطريشة من تحت كويمات الرمال، لها قرون شريرة وعيون شريرة، بعضنا كان – حين يراها – يتراجع للخلف مغمي عليه.

هل كل واحد يمكنه أن يتدرب ويتمرن ليفعل ذلك، ويصل إلى هذه الدرجة المعجزة من الشفافية؟ وبعد ذلك بسنوات كنت وصديقي المهندس وجدي بكر صديق في إجازة بالقاهرة، وفي جلسة هادئة على قناة مليئة بالنباتات في حلوان – جنوب القاهرة – جاءت امرأة غجرية وصممت إن تفتح لنا باب معرفة البخت، وأخذتنا روح التسلية والمداعبة بعد أن وشوش صديقي الودع، وبعد مداورة ومناورة بينها وبين كلابها – الاسم المجازي للودع – نطقت اسم صديقي دون تحريف واسم والدته بعد ذلك، ثم اسم أخوته – أطال الله في أعمارهم – وهم خمسة، ثم أخبرته أنه لن يتزوج الفتاة التي في باله، وعندما ضحك صديقي ساخرًا، أخبرته أنه لن يتزوج أبدًا، وجدي – صديقي – لم يتزوج حتى الآن، وجاء دوري، ويبدو أن لكل واحد منا رقمًا كوديًا تنفتح به مغاليق ماضيه ومستقبله عند ضاربات الودع، كان ذلك واضحًا في طريقة التعديل التي قامت بها المرأة، في تعاملها مع الودع، وبعد دقائق من وشوشتي للدكر نطقت اسمي واسم أمي، وقالت إنني ابن العصيب "وهو مصطلح للذي سوف تواجه حياته أزمات عصبية متوالية"، ثم قالت إنني سوف أنجب

أربعة، وأنني سوف أتزوج اثنتين، وبعد خمسة وثلاثين عامًا من هذه الواقعة الطريفة: أعلن على رءوس الأشهاد أنني بالفعل أنجبت ولدين وبنتين، وقد تزوجت مرة واحدة، ولن أتزوج مرة أخرى حتى لو انطبقت السماء على الأرض.

في بغداد عام ١٩٦٩ – أي قبل أن أدخل عالم الكتابة مباشرة – رأيت هنديا في ملهى صيفي – بدون سقف – يلقي بالحبل إلى أعلي، ونظل نمعن: كيف يحدث ذلك؟ أي ما الذي يشد الحبل إلى السماء؟ وقبل أن تغادرنا الدهشة، يتسلق الرجل الحبل، ويظل يصعد حتى يغيب في السماء، قد سبق لي أن قرأت في كتاب أحد المستشرفين عن حادث مشابه، يطارد فيه مثل هذا الساحر ولدًا، فيضطر الولد إلى تسلق الحبل هربًا، ويصعد خلفه الساحر، وبعد أن يختفيا في أعلى الأعلى، تبدأ تتساقط أجزاء من جسد الصبي: الرأس والأذرع والسيقان، ثم ينزل الساحر فيبكي ويصرخ ويجمع الأجزاء ويعيد ترتيبها، فإذا بالولد يعود حيًا، لا إله إلا الله، أقول لقد قرأت ذلك ولا أود أن أستخدم عقلي في رفضه أو قبوله، ذلك أن هذه الأمور يمكنها أن تصطرع مع العقل حتى تصرعه تصديقًا أو تكذيبًا، إن ولدًا – صبيًا – لم يكن تتجاوز سنه

العاشرة، في استطاعته، وفي أقل من دقيقة، أن ينطق بنـــاتج الحسبة مع أنها ذات أرقام متعددة بأعداد متعـــددة، مثـــل أن تقول له ما حاصل ضرب ٧٤٢٨١٧ × ٣٨٤٢، فإذ به يعلن النتيجة بسرعة مذهلة: ٢٨٥٣٩٠٢٩.

" لقد قمنا بعملية الضرب هذه علـــى آلـــة حاســبة الكترونية"، وكنا نتسامر ونمرح ونبرز دهشتنا لهذا الصـــبي أثناء لهونا في نادي التجديف بأسوان عام ١٩٦٤، كمـــا أن سائقًا سقط بسيارته الروسية " لوري نقل: إلى بطـــن النيـــل وغطس بها، وجاءت القوات المسعفة لتخرج الســيارة دون سائقها، هذا الذي اعتبر مفقودًا لكنه ظهر في اليـــوم الثالـــث على وجه المياه، وفور انتشاله تمهيدًا لإجـــراءات تشـــريحه اكتشف أحدهم أن قلبه لا يزال يعمل، وتم إنقاذ الســـائق دون أية إجابة عن علامات استفهام تقف حول غريق يقضي ليلتين على الأقل تحت الماء أو فوق الماء، وظل هذا السائق معنـــا حتى انتهينا من بناء السد العالي دون أن تتاح له فرصة لكي يسوق أي سيارة من أي نوع، العقرب التي تسير هادئة وقـــد أرخت زبانها حينما تقترب من شخص يحمل حجابًا يحصنه ضدها، والتجربة منتشرة جدًا في الصعيد والدلتا، ويطلقـــون

على حامل هذه الحصانة التي لا يصدقها العقل: المحجـب، المرأة التي وردت حكايتها – ذات مرة – في مجلة المختار، وكانت قد فقدت ابنها في انهيار منزل حتى أنهم لم يعثـروا على جثته، ومرت السنوات، وتزوجت هذه المرأة، وأنجبت، ثم لازمت الفراش في شيخوختها، وذات ليلـة طلبـت مـن أولادها – ومعظمهم فتيان كبار – أن يذهبوا بها إلى مدينـة معينة، في ولاية بعيدة، وظلت تبكي حتـى اسـتجابوا لهـا، وهناك طلبت أن يحملوها على المستشفي لتجد ابنها المفقـود من عشرين عامًا، كان جريحًا وجاءه إحسـاس أن والدتـه سوف تزوره اليوم، إنه ينتظرها، وعشرات ومئات الحوادث التي نقبلها دون أن نستطيع تفسيرها، ويستحسن ألا نفسرها.

على الأقل ليظل في عقلنا جزء طـازج يمكنـه أن يطارد السباع، وأن يتشاجر مـع السـلاحف، وأن يشـارك الملائكة الطعام، وأن يزحف في شقوق الثعابين، وأن يـداهم بطون الغيلان، وأن ينام تحت شـجرة وارفـة، فـي غابـة شاسعة، لتعثر عليه ظبية فترضعه وتشرف علـى تربيتـه، ليصبح بعد ذلك حي بن يقظان أو روبنسون كروز أو لـص بغداد أو طرزان أو الرجـل العنكبـوت أو الرجـل الـذئب

أو أم أربعة وأربعين أو كلب آل مستجاب أو أبو رجل مسلوخة أو رضوان خفير الجنة أو التنين ذلك المخلوق الذي يجمع بين مئات الزواحف والطيور، وله مخالب أسد وأجنحة نسر وذيل أفعى، ثم لا بد من انبثاق النيران المدمرة من فوهته المروعة، حتى يمكننا أن نستيقظ، وندفع بشيء من ذلك الخيال البدائي العظيم إلى فنون القص والشعر، تحريكًا لما أصابها من منطق منظم ناجم عن الإنصات الشديد لما نعتقد أنه متطلبات العقل العلمي الذي استأثر بخيالنا فيما لا أدب فيه.

النص الكامل لحكايتي مع
سنيورة أم زُقْم

●● لم يعد ممكنًا أن نتحمل كل ذلك، لا سجائر ولا حسن كيف "معسل الجوزة"، ولا طعمية، كما أن ثلاثة أفلام مضت متوالية – كل فيلم يساوي أسبوعًا – دون أن نراها في سينما قرشي بالبندر، كانت الدميرة "موسم الفيضان النهري" قد غطت كل المساحات الشرقية، ولم يعد ظاهرًا فوق سطح المياه سوى شواشي النخل والشجر، وقامت الحرارة الشديدة بإزهاق الأعصاب لنعتصر عرقًا، وفي المناطق الغربية التي لا تلحقها مياه الدميرة ظلت الأرض تنبت ما لا ثمر له، لا خيار ولا قثاء "عجور" ولا طماطم، إنما هي مساحات تم حصد قمحها من أسابيع فظلت خاوية انتظارًا للزراعة المقبلة، أو مساحات أخرى انشغلت ببواقي البرسيم الذي دكنت خضرته ومالت إلى الجفاف، ويترتب عن كل ذلك أن معظم البيوت تعيش خلال هذه الحقبة الضاغطة على المخزون من فصل الربيع: بلاليص اللفت، والعسل الأسود، والجبن القديم مع دوام سلق الباذنجان الأسود

أو قليه، وحتى الأبقار والجاموس تعاني من انخفاض منسوب اللبن، هذا دون التنبيه إلى أن مزروعات القطن – التـــي لا نميل إلى زراعتها قريبًا من القرية – لا تــزال تنمــو فــي طريقها للإزهار بعيدًا قرب بحر يوســف، ثــم إن البطــيخ لا يزرع في زمام قريتنا، تخصصت فيه قرية أخــرى هــي "بانوب ظهر الجمل" لأن بلدتنا تتعالى على زراعته فتركتــه للقرى الأقل شأنا دون أن نغفل عن حقنا في زيارة أقاربنــا هناك، في هذه الفترة بالذات، زيارات مكثفة تنتج حمــولات مجانية من البطيخ، أخوال أمي كانوا كرماء فــي الصــيف، نحن لا نتذكرهم في الشتاء ● ●

أول من انتبه لمسألة سنيورة هو عبد الحارث توفيق مع أنه من بحري البلد وليس صديقًا دائمًا لنا، كنا خــارجين من جامع الأمير سنان فور ظهر الجمعة، الجو حار يصعب التحرك النشط في اختناقه، والقحط الذي داهمنا أوقف نشاطنا الذي يتم تمويله من اغتصاب دائم لمنتجات الحقــول، حتــى البرسيم الذي كنا نحمله محشوشاً إلى السويقة لبيعه: لم يعــد تصلح بقاياه لذلك، ونحن نتسكع خلف الجامع – أي في تلــك البقعة التي أنشأ عليها – فيما بعد – محمد حسن شديد مأمور

مركز ديروط – المنتزه الشهيرة، والذي كان متعة للعيـــون بظلاله وزهوره، أي بين ظلال أحجار وطوب وبقايا مقـــابر مهجورة، قال عبد الحارث توفيق: أنظـــروا، فنظرنــــا ... كانت سنيورة تسير في وهن، عجوز مرهقـــة تحمـــل فـــوق رأسها صرة من قماش كالح، قال واحد إنها تحمـــل العـــيش والطعمية، وقال واحد إنها تجيد صناعة البرغل، أي حبـــوب القمح المعالجة بالماء الساخن كي تصلح لسمك الفـــرن فـــي الصحاف، وقال واحد: إنها تتـــاجر فـــي النخالـــة وحبـــوب البرسيم، وقال واحد: ملعون أبوها، وقال واحد: عندها كنـــز فلوس في الحارة، وهيمن علينا الصمت.

كان بيت سنيورة أمام الجامع مباشرة، بينهما شـــارع غير منتظم، شجرة وارفة تغطي الساحة الصغيرة الفاصـــلة، يميل أهلنا أن يقضوا أوقاتًا عديدة تحت ظلالها للسمر ومسك السيرة انتظارًا لحلول موعد صلاة المغرب، والـــذي كـــان صوت الشيخ عبد الباقي يصدح في أذانه، المـــؤذن عجـــوز موغل في العمر، وكانت شحنات صوته القديم تنطلق من فمه الضخم ضجيجًا عذبًا بالغ الخشوع، ولم يكن يفوتـــه فـــرض واحد.

وعندما تحركنا – في تلقائية – ودون أدنى ترصـــد أو تربص، كنا قد وصلنا إلى تلك الشجرة، وكانت ســنيورة تفتح بابها، وعندما ضغطت عليه – بيدها – فانفتح مصـــدرًا صوتًا خشنًا مقلقًا، كنا قــد أحسســنا أن ســنيورة تســتحق الاهتمام، وكانت جماجمنا قد انفتحت على تلــك الحكايــات المتناثرة التي تمتلئ دائمًا بما تحتفظ به العواجيز – النســاء بالذات – من كنوز الفضة والذهب ورزم الأوراق الماليــة، سنيورة كانت تعيش وحيدة، ولها دراية مشهود بها في علاج النعاج والماعز، وهي التي – فيما نذكر – التي يمكنهـــا أن تعرف مدى خصوبة أي معــزة وهـــي لا تـــزال "ســخلة" أو حملا، كما أنها مارست بعض الوقت إخصــاء الجــديان، سنيورة تصنع للمصدورين المصابين بأزمات الكحة: أفضل كوب حبوب الحلبة التي تناولها جمهور كبيرة على الريـــق، وفلوسها – خلاصة كلامنا بعد تلك الظهيرة – تحتفظ بهـــا في سحارة ضخمة مثل تلك التي تعددت أنواعها في مغـــارة علي بابا، بعضنا أقسم أنه – حين رأى سحارة سنيورة – كاد يقع انبهارًا بسبب النور المشع منها، تضاحكنا وتبادلنا كلامًا بذيئًا يصيب أمهاتنا وآبائنا، ثم اشتدت الحرارة رغم استطالة

ظلال البيوت، فأحسسنا بالإفلاس يضـــغط علـــى حواســـنا فانسحبت الظلال من جديد، قام – حينذاك – واحد من كبـــار الجالسين المنتظرين حلول المغرب – فنهرنا، وصرخ فينـــا: عيب المهاترات أمام بيوت الله.

لا أعرف حتى اليوم من الذي اقترح التسلل إلى بيت سنيورة تفريجًا لأزمتنا الطاحنة، قد يكون عوف أبـــو ثابـــت أو رمزي مغاريوس أو مدني أو جريدة أو محمد توفيق "وهو غير عبد الحارث توفيق الذي ليس من منطقتنا قبلي البلـــد " أو فخري أبو محمود أو مصطفى عبد السميع، لكـــن الأمـــر تبلور في الدماغ بسرعة، إننا نعرف عددًا من عواجيز القرية يمارسن – ويمارسون – الربا والتسليف بالفائدة " الفـــايظ " ويحتفظن بكنوز في السحارات، الحاجة فجرة "مؤنث فجـــر" غير أن أولادها الخمسة المتزوجين يقيمون معها في حصـــن ضخم، الحاجة فطيمة – لكن خالتي أم عوف تقيم بأولادهـــا معها، الحاج عبد الحي والحاجة شفاء "وهمـــا بـــلا إنجـــاب" ويتاجران في الحبوب لكنهما بالغا الثراء والترف، الذهب في معصم الحاجة شفاء يلوي عنق رضوان حـــارس الجنـــة ... سنيورة هي الأفضل والأنسب.

لم تكن سنيورة تخرج من بيتها كثيرًا، كنـــا نرقبهـــا خلال حركتنا المتواصلة لأداء الصلاة في كل الأوقات حتـــى مطلع الفجر، لها ابن يرعى الغنم اسمه " زقم "، والزقم أيضًا يطلق على صغار الفيران، ونرى زقم كثيرًا على شـــواطئ الجداول وبين مساحات الأرض الخاوية دون زراعة، كـــان طيبًا يميل إلى ملاطفتنا، ولقد مرت سنوات طويلة تتجـــاوز الأربعين عامًا – وتقارب الخمسين – ولا يزال زقم – وقـــد أصبح كبيرًا ومسنًا – شديد الحرص على تحيتي وملاطفتـــي فور أن يراني جالسًا أمام بيت صـــابر مســـتجاب – حتـــى اليوم ... لكن زقم لا يعرف حتى الآن ما كان يدور في عقلي إزاء سنيورة أمه، هذه التي قررنا مداهمتها دون حساب لـــه بالمرة، فلم يكن يقيم معها، ربما – كعادة أهلنا في الريـــف – كان يقيم في موقع آخر موروث وخشوا أن يســـتولي عليـــه باقي الورثة، لا أعرف لكن سحارة سنيورة كانـــت تناديـــا، وكنا قد قضينا سبعة أو ثمانية أيام في مراقبتها، حتى جاءت اللحظة: ساعة الصفر.

أول مشكلة توقعنا مواجهتها هي فتح البـــاب عنـــوة، ودون ضجيج بالطبع، ولذا فقد أحضر لنا رمزي مغـــاريوس

– " الذي أصبح قسيسًا بعد ذلك لفترة ثم هجر السلك الكنسي ليعود مثلي ومثلك" – قضيبًا من الحديد يصلح حشـــرة بـــين الباب والحائط فيخلعه، وكان مسجد الأمير سنان قـــد أغلـــق أبوابه منذ انتهاء صلاة العشاء، ولم يعد في البقعـــة ســـوانا، والليل ضاغط بظلامه القروي، الذي كان يضاء – أيامهـــا – بعواميد تحمل كلوبات متناثرة في الشوارع الرئيسية التي يقيم فيها الأعيان عادة، تركنا واحدًا أو اثنـــين يرقبـــان الموقـــع، واقتربنا من الباب، وبدأ بعضنا يضغط في رفق عليه، كنـــا نتحسس الباب تمهيدًا لحشر العتلة الحديدية بينه وبين الحائط، لكن، والمذهل، الباب: انفتح، تجاوب تحت الضغوط المبكرة بسرعة لا تتناسب مع توقعاتنا بالمرة، انفتح البـــاب ليصـــنع مفاجأة تكاد تكون دعوة واضحة أن الأمور كلها تسير حسبما نبغي، بعد ذلك بسنوات – إشارة إلى سهولة فتح الباب غيـــر المتوقعة – رأيت الفيلم الأمريكي الذي كان بطلـــه الممثـــل الكوميدي بوب هوب، كان في ظروف تحتم عليـــه مداهمـــة خصمه في منزله الكائن في البراري، والمثيـــر للمـــرح أن تشكيل بوب هوب الجثماني يحول بينه وبين أن يصبح بطلا شجاعًا مسلحا بمدفع يتسلل لمداهمة هذا الخصم العنيد الظالم

الشرس، وعندما وصل بوب هوب – متسللا – ومسـلحًا – إلى الباب، رأى شراعته العلوية المصنوعة مـن الزجـاج، الأجيال الجديدة في بلدنا لم تألف هذه الشراعة الزجاجية فوق الأبواب والتي تلاشت حاليًا، المهم أن بوب هوب – ومعـه بندقيته – هابر وثابر، ثم صعد فوق ظهر جواده، حتى وصل إلى الشراعة، فظل يعالجها كي تنفتح، لكنها ظلت صـامدة، فلم يجد بدًا من تحطيمها، فكاد صوت التحطيم يسقطه أرضًا، لكنه ظل يحاول حتى اخترق الشراعة، وما كان ينـزل مـن الناحية الأخرى، حتى فوجئ، بقطة تتثاءب وتموء وتحتـك بالباب بظهرها لينفتح في سهولة...!!

كان باب سنيورة قد انفتح فور الضغط الأولى عليه، فور التقاطنا الأنفاس أيضا بدأنا نخطو في حـرص داخـل البيت، كنا قد رأينا تكوينـات المـدخل – مـرارًا – أثنـاء المراقبة، حيث يليه مباشرة سلم خشبي، لكننا رأينا سـنيورة مستغرقة في نومها على الأرض مباشرة، تحت غطاء مـن الوبر الخشن – لاحظ أننا في جحيم أغسطس، ومصباح بـلا زجاجة يلقي بضوء خافت وكليل من فوق رف خشبي متشبثًا بالحائط، أنفاس سنيورة كانت عالية ومتقطعـة، وبجوارهـا

مباشرة ورق كرتون قديم عليه أوان غير نظيفة: حلة وكوز، ثم طاسة بها بقايا، كان أحدنا قد تجرأ ورفع شعلة المصباح بالمسمار الجانبي الذي يغوص في الأدران، وعلى اليمين كانت السحارة، الصندوق السحري، الأمل المنشود ... صحيح أنه كان صندوقًا صغيرًا كالحًا، لكن: من قال إن الكنوز تحتاج إلى صندوق ضخم؟

غير أن سنيورة تحركت، الله يخرب بيتك، تحركت تحت الغطاء الثقيل فازداد تنفسها وضوحًا وتقطعًا، لم تتحرك فقط، بل أخرجت ذراعًا، تجمدنا في مواقعنا، كانت الكارثة تدق الطبول، أخرجت ذراعها وقالت بصوت مضعضع: يا رب، ثم قالت بصوت ممزق كلامًا لم نتبينه، هممنا بالاستيلاء على الصندوق وحمله إلى الخارج، أحسننا بكارثة، عاد صوت سنيورة يعلو، متقطع لكنه يعلو، كانت تتصت قليلا ثم يعود تنفسها لنوع من الحشرجة، بعدها تتجمع قطع الصوت، " زقم " إنت جيت، ثم صمت، مالنا نحن وهذه اللحظة المرعبة، بعدها أخرجت سنيورة ذراعها الأخرى، وخرج رأسها ذو العينين المغلقتين، والفم الصغير الناشف: شوية مية، أسقيني يا زقم، لكن كل واحد منا ظل يمعن في

الآخر، واندلحت عيوننا من وجه سنيورة المتغضن الشــاحب إلى حيث الكوز، فتحرك أحدنا – في حركة مستهينة وكأنــه لن يهتم بما يحدث – ووقعت عيونه على الكوز، تناول الكوز فوجده فارغًا، كان صوت سنيورة لا يزال مفتوحًــا تاركًــا الكلمات المحطمة تجمع كتلتها بعيدًا عن الشفتين، حينئذ مــلأ أحدنا الكوز من الزير، وتجرأ أحدنا فرفع نــور المصــباح أكثر، لكن رأس سنيورة ظلت في موقعها، حركتهــا يمينــا وشمالا، دون أن تفتح العينين.

وبشجاعة نادرة اقتربت من سنيورة، رفعــت عنهــا الغطاء، فإذا بالعرق يملأ تفاصيلها، جلســت خلفهــا علــى الأرض، ورفعت رأسها على حجري، وتناولت كوز المــاء وحركته بشكل يناسب تكوين شفتيها الناشفتين.

فبدأت تمتص الماء، وتمتص الماء.

ثم اندست تحت الفرش الغليظ مرة أخرى، وقالت في ضعف أقل جفافًا: اعمل لي شاي، شاي يا زقم، فتحرك ثالث يبحث عن إناء الشاي.

حينئذ أصبح مناسبًا أن نجلس في هدوء حولها، دون أن نتبادل كلمة واحدة.

القصص القصيرة تنتهي عند هذا الموقف، والذي لم نغادره حتى شربت سنيورة الشاي، وطلبت عصير ليمون من هذا الليمون الناشف المتناثر حول فرشتها، حيث نسينا تمامًا الهدف الأسمى الذي تسللنا إلى البيت من أجله، فظل الصندوق الصغير في موقعه لا يجرؤ واحد منا أن يقترب منه، حتى جاء الصباح، وسنيورة لا تزال تنادينا باسم ابنها "زقم".

ما يعرفه أخونا "زقم" أن سنيورة – أمه هذه – قتلت بعد ذلك بأعوام، خنقوها بحبل ليف وعلقوها في السقف، وأخذوا الصندوق.

والقرية كلها وقفت سادرة دون أن تشي بالقتلة، مع علمها المؤكد أن الذين قاموا بذلك ثلاثة من رجال الأعيان المفلسين المتسكعين.

وقد انتقمت السماء منهم جميعًا، بالشلل والتسول والاحتياج وإنجاب مجموعة من الصبيان المعتوهين الذين تسيل ريالتهم على صدورهم.

عن الستين عامًا الأولى من عمري: ((قل إن شاء الله))

● ● في هذه الأوقات التي تتسلى فيها – يا صديقي – بقراءة هذا المقال، تقوم الحاجة فاطمة بسحب ملف خدمتي من موقعه الكامن في إدارة شئون العاملين بمجمع اللغة العربية، تمهيدًا لاستصدار القرار المناسب لإحالتي للاستيداع: أي دخولي عالم التقاعد الوظيفي، أي تحويلي إلى موظف سابق يتقاضى معاشًا حكوميًا اعتبارًا من ٢٣ يوليو ١٩٩٨، بمناسبة بلوغي – رعاك الله – سن الستين، تلك التي تؤهلني – مثل غيري – للانضمام إلى جوقة لاعبي الطاولة على قهوة أحمد بتاع الجاز في العمرانية، أو قهوة زهرة البستان وسط القاهرة، الأولى نتكلم فيها عن الولد الذي سحب بندقية وأردى بها عددًا من أعدائه، أو سيقان البنت التي وقعت في دباديب الولد نفسه، أو المساحة المكشوفة ما بين الصدر والأوراك للبنت الأخرى التي يدور حولها الصراع الدامي، وفي زهرة البستان سوف يكون الجدل طاحنًا بين مناصري الواقعية السحرية والرمزية العبثية، مع أهمية الصمت الضاغط – والمتوتر – بين إبراهيم حسن المصور

وعبد العزيز موافي الشاعر – حول الطاولة أيضًا، مع عــدم استبعاد ضجيج أنصار الجريون (مشرب) والإتيليه (مجلس) واستيلا (مشرب يميل إلى الضجيج) ● ●

الأمر بالنسبة لي سوف يختلف – إن عشت، فلم تعد المقاهي تستقطبني، الرغبة في التجوال والســفر والانتقــال أصبحت أقوى، والخلو إلى النفس في المساحات المتسعة من رمال أو مياه أو نجوم سماء حلت محل الضجيج القديم، كما أن الجدل حول ما يجري – في النفوس وخارجهــا: قــراءة واستيعابًا وإدراكًا صنع تواصلا مع أفراد بعينهم، لــم يعــد مريحًا أن أقع في جدل مع أي أناس يريدون أن يبدوا مثقفين لأنهم رأوا اسمي منشورًا في جريدة أو مجلة، إنهم يودون أن ينفوا عن أنفسهم الجهل الملون فيثبتــوه – بــذلك الجــدل – ويؤكدوه، وليس هذا تعاليًا، إنما هو منطق نفسي يحول بيننــا وبين التفتت، والعصبية، والتصادم.

كل هذا كوم وإحساس البنــي آدم منــا باستشــراف اللحظات الحساسة والحرجة المؤدية إلى التقاعد – المعاش – كوم آخر، فالستون عامًا الأولى من عمــري – رعــاك الله ورعاني – ليست أوراقًا في ملف تســحبه الحاجــة فاطمــة

أو قرارًا يوقعه رئيس مجمع اللغة العربية، وإنما هـــي هـــذا الامتداد الموغل في صحراوات وبيوت وأكواخ، والأحاسيس الناعمة حينما تتدفق طوفانًا في أنفاق محطة كهربـــاء الســـد العالي، أو حين تتلمس بوادر التهاب الشـــفتين المتـــوترتين لحظات الحب الساذج المبكر، أو حين أكون الموظف المتميز في شركة المقاولون العرب، الـــذي يوكلـــون إليـــه المهـــام المتميزة في بغداد وبيروت وبيريه – اليونـــان – ورومـــا – إيطاليا، ثم يقع رئيسي المهندس المتميز أحمد عبد الـــرحمن عوف – في احتكاك مع صاحب أو مدير الشـــركة عثمـــان أحمد عثمان، فيغضب رئيسي ويعتزل في بيته، وحينئذ أفاجأ بكل إدارة الشركة تحاول خلع كل التميز الذي أرتديـــه كـــي يتفرجوا على جسدي الريفي عريانًا – انتقامًا من المهنـــدس عوف، أو هذه اللحظات الصارخة بالشجاعة حين أتسلق جذع شجرة الجميز على ترعة الديروطية كي أقفز – طـــرزان – في المياه الصاخبة، أو تلك الرسائل العطشانة شوقًا عاطفيًـــا لتحملها بعد ذلك كتب مصطفى محمـــود – اعترفـــوا لـــي، أو تلك الدقائق الممتدة دهورًا حينما أتضاحك فيها مع قاتل له قضية جناية في مكتب المحامي الذي كنت كاتبًا عنده، أو هذا

الحصار المروع الذي شارك فيه خالي الشاعر الناظر أحمد خميس وأعمامي، وعمتي فاطمة أم أحمد والشيخ ثابت حتى أتوقف عن التعليم كي أعمل لأساعد أبي الفقير الطيب الغلبان، والذي ظل ينتظر مساعدتي سنوات طويلة ومرهقة دون جدوى، وفور أن مات: انفتحت بوابة السماء، وخلال ذلك ساهم الجميع باتهامي بالبوظان والخسرنة والفساد، وهو ما جعلني أشعر بضرورة ألا يكون الواحد منا ألعوبة في أيدي الرعاع والسابلة وذوي الجماجم الشريرة، لا يصح أن يظل هؤلاء هم الأقوى والأذكى، ولاسيما أن هؤلاء بالذات مجهزون للانحناء – تقبيلا لكفوف الأقوى والأذكى، إني أراهم الآن – ومن بقي منهم، ومن ورث صفاتهم، ومن ظل سادرًا، وهم يتجولون ويتحركون تحت سطوة (الفشخرة) الكاذبة الملونة بألقاب ورتب ونجوم – كانت – على الأكتاف، تقاعدوا من زمن مبكر – رغم أن بعضهم من جيلي – وكانوا أصدقائي، يعيشون على هامش الفعل دون تفاعل، يقضون أكبر وقت في اجترار عالمهم الخاوي الخربان ذي المظهر المصطنع، مع الضحكات المختلفة إعجابًا بمواقف عادل إمام ومحمد عوض وفؤاد المهندس.

نعم هي الستون عامًا الأولى من عمري رعاك الله – والتي تمور بالحزن الكثيف في اليوم التالي لهزيمة يونيو ١٩٦٧، ثم في المظاهرات الحادة الهادرة المروعة مطالبين بعودة جمال عبد الناصر فور إعلانه التنحي أو الاعتزال، ثم هذه التيارات الحزينة المأساوية التي اجتاحت جوانحنا جميعًا – بعد ذلك بسنوات قليلة – حينما رحل هذا القائد الشجاع الباسل المخلص ولم يعدل من اجتياح الحزن للأفئدة سوى مشهد أبنائنا المداهمين لخط بارليف العتيد في الضفة الشرقية من قناة السويس، كان المشهد يزهو فوق أي مشهد عشناه، حتى ولو جاءت الأحداث بعد ذلك بغير ما نحب، وما اصطلى به القلب من حزن غامر وإحساس مروع باليأس واللافائدة فيما سمي بعد ذلك بثغرة " الدفرسوار" أي كوارث تلك التي اخترقت مفاصل جهازنا العصبي في تلك السنين المريرة؟ وكان الجثمان المحروق للمرحوم على عبد النظير عام ١٩٤٨ – في حقول البرسيم المكللة بالصقيع لا تزال ماثلة – ممزقة الرقبة – في كياني، وبعدها ثريا الجميلة بنت خالتي التي زوجوها في التاسعة من عمرها – وهي السن نفسها التي تزوج فيها أبي من أمي قبل ذلك بدهور.

لكن ثريا حملت مبكرًا، وفشلت الداية – المولدة القابلة – في توليدها مما دفعها إلى استخدام التبن والنخالة توسيعًا لرحم بنت خالتي النازف، والتي حملتها عربة الإسعاف في مشهد دموي، حيث قطعوها في المستشفى استخراجًا لجنين ميت، لا إله إلا الله، وكانت الآفاق تمتد في صحراء واحة كركر غربي السد العالي، وهي واحة مهجورة كانت – فيما يقال – معسكرًا للإنجليز في الحرب العالمية الثانية، وقد أتلفوا شجرها وسمموا بئرها كي لا يستفيد الجيش المصري منها، وكانت لافتة التنبيه بعدم استعمال مياه بئر هذه الواحة تؤكد ذلك، كما أن حرس الحدود – الهجانة – المنتشرين حول درب الأربعين يحذرون الجماعات العابرة بعدم الاقتراب من هذه المنطقة الخضراء الخربة، زرت هذه الواحة مرات فأزدحم بمشهد مأسويات كل العمر الماضي، والتي كانت – في كارثة من كوارثها – أن أجلس قريبًا من هذه الواحة كي أشهد غروب الشمس المتناغم مع الشجن القديم.

في حلقة من حلقات العمر المبكر ظللت أدب بين حقول قريتي، من أول منطقة البغيلي وترعة الإبراهيمية

شرقًا، ثم عبورًا على ترعة البدرومانية غربًا فبحر يوســف وغرب الجسر الممتد حتى حوض ظهر الجمل الــذي تكــاد الصحراء الغربية تلامس أكتافه، استوليت على ثمار الطماطم والخيار والكوسة ليلا، وظهــرت لــي العفاريــت والــذئاب والكلاب السعرانة والثعالب الجبانة، وذهبت مــع صــديق – قتل من زمن – إلى بيوت الغوازي فــي أولــى محــاولات اكتشاف طريق الآثام والذنوب التي تساعد في الندم وطلــب المغفرة، ثم شاركت زميلا في اصطياد نعيمة بائعة الطعمية، لكن المؤامرة لم تثمر لأنها طالبت بحقوقها قبل أن تصبح لها حقوق، ثم هناك بنت خال أمي التي كانت تفخر بأنهــا لــن تتزوج إلا صاحب مؤهــل عــال – مــن بــاب تحقيــري وازدرائي، رغم أنه لم تطف أبدًا في بــالي كــأنثى جــديرة بالاشتهاء، وقد ظلت البنت تستمتع بهذه النغمة حتى كبــرت وأصبحت عانسًا تصلح للاكتئاب ثم الموت، وترتاح واحــدة أخرى من قريبات أمي في حلقة من قصص الغرام الســاذج، لكنها لم تلبث أن تزوجت وهجرت الوطن والزوج والابنــة لتتزوج من أمريكي – وهذا لا علاقــة لــه برمــوز الأدب السياسي المعاصر، عليك أن تراني عاملا بمعامل أبو الهول

للسينما بالدقي – الجيزة، أو مساعدًا لخطاط لافتات بشارع محمد علي، أو ناقلا لشحنة كسب (علف البهائم) من ديروط لبيعها خلسة في القوصية أيام أن كان المرحوم محمود عبد المالك مسئولا عن جمعية الفلاحين التعاونية، لكن الأمور – كل هذه الأمور – تراجعت للخلف لتصبح ذكريات حينما أحسست بالتحقق فور نشر القصة الأولى لي في مجلة الهلال، نعم: في القصة الأولى، وكأن الدرجة الأولى هي كل السلم المرهق، والذي من إرهاقه لي أدخلني المستشفيات وأفسد جهازي التنفسي وأحالني إلى راغب دائم في الجلوس وحيدًا، فقد أصبحت الكتابة فرحًا خاصًا لي، وبديلا عن الانتصارات المصطبية التي يطيب للآخرين الاستمتاع بها، وقد كنت في عنفوان السعادة ورئيس الجمهورية – منذ ما يقرب من ١٥ سنة – يمنحني وسام الفنون والعلوم والآداب من الطبقة الأولى بسبب حصولي على جائزة الدولة التشجيعية في الأدب عام ١٩٨٤، ثم هناك الاحتفالية الجميلة التي حدثت في أوائل العام الماضي حينما فاز كتابي (قيام وانهيار آل مستجاب) بجائزة أحسن كتاب قصصي في معرض الكتاب، وقد فاز كتابان آخران لكاتبين

أعضاء في مجمع اللغة العربية الذي أعمل موظفًا في إدارته، لكن المجمع احتفى، واحتفل بالعضوين دوني، مع أني أنا ابن المجمع ولست أديبًا عابرًا عليه، أو أديبًا حط على مطاره بعد أن تحققت له كل أهداف العمر الطويل، فقد دخلت المجمع عام ١٩٧٠، حيث كان الأمين العام الدكتور والمربي والفيلسوف إبراهيم مدكور، وقد ظل هذا الرجل هو المجمع اللغوي سواء أكان أمينًا أو رئيسا له بعد رحيل طه حسين، وقد كلفني منذ الأيام المبكرة الأولى بمتابعة موضوع المبنى الجديد للمجمع، ابتداء، من اختيار الموقع في الزمالك – كان المبنى أيامها في شارع مراد بالجيزة – ومرورًا بالشركة التي ستقوم بإنشائه، ونظرًا لعدم وجود جهاز هندسي في المجمع يمكنه إدارة وإصدار القرارات المناسبة، واعتمادًا على صعوبة التعامل مع الإدارة الهندسية بوزارة الثقافة التي كنا نتبعها أيامها، والتي كانت لا تشعر بالولاء نحو إدارة المجمع بطبيعة الظروف، فقد اقترحت أن أسعى عند المقاولون العرب كي تقوم بهدم القصر القديم الذي يشغل الموقع المقترح، بالزمالك، والذي نجحنا في نزع ملكيته من أصحابه الذين كانوا يتقاضون مبلغًا تافهًا قيمة إيجارية له من

وزارة التعليم (المعارف سابقًا) فقد كللت المساعي بالنجاح ووافق عثمان أحمد عثمان – الذي أصبح وزيـــرًا للإســـكان والتعمير أيامها – على إصدار قرار تكليف لشركة المقاولون العرب بإزالة المبنى القديم، وإعداد الموقع، وبنـــاء المبنـــى الجديد، وتأثيثه، لاحظ أن الأمر كان سيختلف لو ترك تحـــت سطوة الأجهزة البيروقراطية، أنظر لقاعة الجلسات المجمعية والتي من الأرابيسك الخالص، وعليك أن تـــدخل القاعـــات الفرعية، وتجهيزاتها بالأثاث المناسب، أنظر إلى الموقع الذي تتناول منه الحاجة فاطمة الملف الخاص بي كـــي تستصـــدر قرار إعفائي من العمل وإحالتي للتقاعد. انظر إلـــى قاعـــة الرئيس – الذي هو الآن الدكتور شوقي ضيف – وإلى المقعد الذي يجلس عليه الآن وهو يوقع قرارات الحاجـــة فاطمـــة، ثلاثة عشر عامًا– من ١٩٧٠ إلـــى ١٩٨٣ – وأنـــا ألـــف وأدور بين إدارات المرافق في مبنـــى محافظـــة القـــاهرة، والمكتب الاستشاري المصمم لتكوينات المبنـــى، والإدارات المختلفة في وزارة الإسكان، ثم إدارة حي غـــرب القـــاهرة وطلباته المتعددة، وشـــركات الكهربـــاء لتوصـــيل مختلـــف الخطوط الكهربائية من منخفض إلى متوسط إلى عال، واللف

والدوران كي أحول بين المحافظة وبين إزالة أشجار المانجو في حديقة المجمع – التي تحتل جزءًا منها سيارات المجمع الآن، أنظر إلى الجهود المبذولة في وزارة المالية كي نحصل على اعتمادات الباب الرابع المخصصة للبناء، ولاسيما أن سنوات – كالثقوب – جاءت خلال ذلك بدون أي اعتمادات بالمرة، والجهود الأخرى المؤلمة والمرهقة كي لا تتوقف الشركة المنفذة عن مواصلة العمل في المشروع بسبب خلو الميزانية من اعتمادات، وهذا كله جرى تحت ظل من سيرحمه الله بناء على دعائي: إبراهيم مدكور، الذي لم يرفض لي طلبًا، ولم يضايقني في استنزاف حركتي في محاولة النفاذ داخل الأجهزة البيروقراطية المختلفة، ولاسيما أن هذا الرجل هو صاحب كتابه البديع شديد الذكاء الذي أصدره عام ١٩٤٨ – إصلاح الإدارة الحكومية، والذي – هذا الرجل – بعد انتهاء المبنى بالشكل الذي تم تصميمه به، وبعد تأثيثه وفرشه بالسجاد والموكيت، وبعد تشغيل المصاعد والتكييف، قال للزميلين المديرين السابقين بالمجمع: إبراهيم أحمد ونجيب وهبة: أريد أن أكافئ هذا الرجل – الذي هو أنا، فطلبت منه أن أستقل بحجرة على نهر النيل، والتي أكتب

فيها الآن منذ عام ١٩٨٤ حتى الآن، ومنها حصلت على جائزة الدولة التشجيعية، وفيها كتبت قصصي وراجعت تجاربها، حيث كان الدكتور مدكور قد أصدر أمرًا بألا يرهقني أحد بأية واجبات إدارية منذ ذلك الوقت، ولعله من المناسب الإشارة أن بيروقراطية المجمع الذي أكتب من حجرته الآن – صمموا أن يكون كل الأثاث جديدًا في جميع قاعات وغرف المجمع، عدا غرفة واحدة: غرفتي الجميلة، والتي يتألق فيها دولاب كتبي المحطم منذ أن كان في شارع مراد بالجيزة، والمكتب نفسه الذي ظللت أجلس خلفه منذ أن التحقت بالعمل في المجمع، وهو الجهاز البيروقراطي نفسه، الذي كان عدم اشتراكي على أي مستوى في جهود ومتابعة بناء وتأثيث هذا المبني الجديد سببًا في نجاة المجمع من مكائد الإدارات وشرورها، والتي أدت – فيما بعد إلى وقائع ليس هذا وقت الجنوح إليها دعني أفخر بذلك ولو لم يحس أحد سواي.

وهأنذا أجمع أوراقي، كتبي المترجمة إلى الفرنسية والإنجليزية والهولندية واليابانية، إهداءات الأستاذة الأعضاء الذين صادقوني في المجمع: أحمد مستجير ومحمود مكي

وناصر الأسد وأحمد صدقي الدجاني ثم أصدقائي القليلين جدًا من موظفي المجمع وعماله، لنعود إلى ترتيب الأوراق مـــن جديد، وصياغة الأوقات والأماكن – التي جهزتها مبكـــرًا – التي سوف أحيا فيها، بعيدًا عن التصعلك في المقاهي حـــول أصوات زهر الطاولة وقواشيطها، كي أترك للحاجة فاطمـــة أن تبدأ الآن – أو بعد يومين أو أسبوعين في تجهيز الأوراق المناسبة كي أصبح موظفًا سابقًا، مع أني – فعلا – موظـــف سابق منذ أكثر من خمسة عشر عامًا، ليصبح المجمع، ومـــا في المجمع، ومن في المجمع، جزءًا من ذكريات تضاف إلى أكداس أخرى – لا تزال مشتعلة – من ذكريات.

يا سلام يا ست ... إنها أم كلثوم

●● متعتنا القصوى ظلت تلف وتدور في الكلام المبكر عن حفلة أم كلثوم، كانت الحفلة – كما هو معروف – تبدأ في الساعة العاشرة من ليلة الخميس، وفي الحقيقة فإن هذه الليلة (بالتعريف الشرقي العربي الديني المصري) ليلة الجمعة، أي ليلة الوصال الزوجي، ليلة الهنا، صباح اليوم الثاني يكون الجميع – كل الشعب – في راحة، حيث يبدأ الشعب في الاستيقاظ خلال حركة ترتيبات صلاة ظهر الجمعة، هذا إذا لم تكن الليلة قد اقترنت بحفلة أم كلثوم الشهرية، يكون بعد العصر وقتًا مناسبًا لبدء حركة الاستيقاظ من جمهور غفير، ويكون قبل ذلك بليلتين – على الأقل – قد بدأ التفاوض والحديث والكلام والتربيط بين الجماعات والشلل كي نكون في استقبال صوت أم كلثوم في أحسن حالاتنا: المزاج بالذات ●●

كنت في العاشرة من عمري حينما بدأ لفظ (أم كلثوم) يتسلل إلى طبقات العقل، سالمة – مغنية قريتنا الشهيرة – جاءت لتحيي حفل سبوع (أمجد)، أول إنجاب لخالي العظيم ناظر المدرسة، وقريتنا – ديروط الشريف –

من أكبر وأضخم قرى مصر، كان تعـدادها عـام ١٩٤٧ – ٣٧ ألفًا، لها عمدتان: واحد مسلم وكان أيامها أحمد عثمـان الذي يقضي الصيف في لبنان، وواحد قبطـي مـن عائلـة (القمص) نجيب القمص أو غيره، وكلا العمدتين حاصل على شهادة عليا، أي لم يكن أحدهما مشابها لهؤلاء العمـد الـذين تشغي بهم أفلام السينما والتليفزيون وروايات الأصدقاء، وهم العمد المتناسلون من أصلاب عبد الرحيم بيه كبير الرحيمية قبلي، هذا النوع من العمد لم نعرفه في قريتنا أبدا، وعنـدما انتشر في كل أركان الإعلام (مع إضافة المسرح) ظللنـا – نحن آل ديروط الشريف – نبحث عن هذا النوع من العمـد في الأرياف الأخرى، سيكون ملحوظًا أن مدرسة خالي – أي المدرسة التي كان خالي ناظرًا بها – أقامت حفلة عام ١٩٤٦ – حضرها مدير التعليم – وأرجو أن تصدق ذلـك – مـدير التعليم بنفسه – ومن بين فقرات الحفلة كـان العمـدة الـذي تعرفونه، أي العمدة الصعيدي الجاهل خفيف الـدم المثيـر للمرح معه وللسخرية به.

كان الجمهور الذي جاء لسماع سالمة في سبوع أمجد كبيرًا وكثيفًا، بالناس امتلأت ساحة البيت، ثم الحارة، حتـى

بدايات الشارع الكبير، وكل العائلات أوفدت ممثليها ومحبي خالي الناظر الذي تزوج وهو يشرف على سن الأربعين، مع أهمية أنه كان الأول الذي وصل إلى هذا المستوى من أهلي وأهل قبلي جميعًا كما أنه كان رمزًا للبلد خلال اصـــطدامها بالقرى الأخرى، وسالمة – المغنية – كانت تــؤدي واجــب الغناء بكفاءة معروفة: في أفراح المواليد المتميزين، وختانهم، والخروج من السجن، وعدم ثبوت الأدلـــة علـــى المتهمـــين بالثأر، وعند نجاح الانتقام، والتعديد في الجنازات على رأس الراجلين، ووراء النعش، وعند عـــودة الغـــائبين، وكانـــت حنجرتها قد برزت وتدلت في رقبتها كالرسم البياني لـــتعلن عن نشاط قريتنا، سالمة جاءت تلك الليلة لتغني في هذا الفرح العظيم، والذي كان مدخلي لمعرفة أم كلثوم، غني لي شـــوي شوي، غني لي وخد عيني وكانت الجماهير تهيص صارخة: أعد، كمان وكمان يا ست، يا صباح الخير يا اللـــي معانـــا، على بلد المحبوب وديني، يا مسافر على بحر النيل، كمـــان يا ست، الله يسترك ويخليك للمجـــروحين، الكـــروان غنـــى وصحانا يا اللي معانا، وراء ســـالمة كـــان عـــازف ربابـــة

وعازف عود وطبال، المرة الأولى التي أرى فيها العود بعيدًا عن صورة فريد الأطرش في الجرايد.

بعد ذلك بأيام قلائل كنت في بيت عمتي فاطمة، وكان ابنها الشيخ أحمد (المولع بمصاحبة أعيان البلد والمغرم بتقليدهم) قد اشترى جهاز راديو كبير من هذا الذي يستمد كهرباءه من البطاريات السائلة. المستعملة في تغذية موتورات السيارات)، الفخر يدفعنا لإعلان أنه كان الخامس أو السادس في قريتنا الذي اشترى راديو: كان قبله أنور الشريف، وبيت القمص وأنور شناوي ثم ثلاثة أو أربعة أجهزة في بيوت المعارضة، بعدهم ابن عمتي الذي هالني أن الجميع زادوا احترامهم له فور امتلاكه الراديو أضعافًا ثم لم تلبث أن جاءت سالمة – من الراديو – لتغني: ظلموني الناس ظلموني، حينئذ نبهني واحد من ذوي الخبرة: هذه ليست سالمة، إنها أم كلثوم.

وما كادت الراديوهات تنتشر، في تلك الأحقاب من عام ١٩٤٨ – ١٩٥٠ حتى أصبحت أم كلثوم جوًا خاصًا، تهفو القرية أن تتنفسه، وأن تعيشه، وأن تدندن بمقاطعه، وأن تعد العدة لاستقبال خميسها الخاص بأم كلثوم، تمامًا كما

كانت – أعوامها – تعد عدتها لاستقبال ليلة أبــو هــارون، وليلة الفرغلي، وليلة السيد البدوي، وليلــة الخضــر وليلــة الشاويش، ومعظم الأولياء أصحاب الليالي لم يكونــوا مــن بلدنا، لكن هذا لا يمنع الاحتفال بهم وبلياليهم، وفــي معظــم الحالات كان ذلك قد ثبت وترسخ نتيجة لظهور الولي لواحد من ذوي الشأن في المنام، وفي العادة يكون الولي قــد حــل معضلة من تلك المعضلات التي واجهها ذو الشــأن، أو أن الولي قام (بالتعليم)، والتعليم هو أن يترك الولي أثــرًا فــي موقع معين يرغب أن يقام له فيه شاهد، شرخ فــي حــائط أو حفرة في أرض، أو انقصام بين سقف وجدار، أو الفشــل في إشعال نار فرن ليصبح أي موقع حدث فيه ذلك مرشــحًا لإقامة الشاهد لهذا الولي، والذي يتضمن قبة جيــدة وتحتهــا شاخص مغطى بقماش أخضر فوق مقبرة وهمية، فإذا اتســع الأمر وتضخم ذو الشأن – الذي وعد – أو ذو شأن آخر من العائلة أو المحبين، فيمكن إقامة مصلية – أي مساحة للصلاة ملحقة بالمقبرة الوهمية، أو الإشارية، ومن المهــم أن أشــير إلى أن أي موقع يقوم فيه الولي بالتعليم – أي يترك الأثر – فسوف يقام فيه القبر الإشاري مهما كان الموقع، ولا يــزال

قبر الشيخ علي (علي من؟؟ لا أعرف) مقامًا في درب ضيق طويل ينبعج عند المقام ليصبح قابلا للعبور فيه، هذا الدرب المخنوق الضيق الطويل المنبعج يستعمل أصلا في وصول ناس قبلي البلد إلى منطقة الطاحون.

كما كانت بلدنا تمهد لاستقبال ليالي الأولياء الصالحين، كانت تستعد لاستقبال ليلة أم كلثوم...

خميس أم كلثوم يبدأ يوم الاثنين السابق، ويوم الاثنين هو يوم السوق، وهو يوم الذبح وشراء اللحوم لمن يستطيع، ولم نكن نعرف الثلاجات، في الشتاء كان يمكن للحوم يوم الاثنين أن تصل سليمة إلى ليلة أم كلثوم، تعالج بالتسخين كل يوم مرة، أما في الدميرة أو القيظ، أو أيام الحرارة الصيفية، فيصعب ذلك، لكن هذا لم يكن له شأن كبير، فالذين تعودوا على الاحتفاء بالاستقبال ليلة أم كلثوم كانوا نوعين لا ثالث لهما: الأثرياء، وهم في حالة طقوس السهر الدائم، إن لم يكن لأم كلثوم فلأن ذلك هو النسق الذي تقوم عليه حياتهم: الكوتشينة (الميسر) والطاولة واستضافة الراقصات، والكلام عن المسائل الوطنية المتشاعبة وهم خلال ذلك يأكلون المحمر والمشمر والمخمر والملتوت بالبهارات،

لا يصعب على أي غني في بلدنا أن يذبح الجديان والكباش كقانون أصيل لاستمتاع ضيوفه، أما النوع الثاني – المتوسط – أي الذي لا يملك قدرات النوع الأول، فيبدأ مبكرًا – ابتداء من يوم السوق – في ترتيب أمور أم كلثوم، إن لم تكن اللحوم فهي الدواجن والحمام، التي لا تحتاج إلى ما يحتاجه اللحم المذبوح، من رعاية، كثير من البيوت التي كانت تحتفي بليلة أم كلثوم كانت تبيع دواجنها وحمامها إلى ضيوفها بدعوى شرائها من خارج البيت.

كل ليالي القرية يبدأ التمهيد لها من يوم الاثنين السوق، لكنها – بعد ذلك تختلف، فابتداء من يوم الثلاثاء يبدأ القائم بشأن السهرة في التجهيزات الأساسية، والسرية أيضًا، الحشيش له أهمية قصوى على كل عناصر اللذات والمسرات، هناك تاجر حشيش يقيم بصفة دائمة بجوار دكان عبد الواسع، هو أعور العين ونظيف الملبس ويعتمد أساسًا – في نشاطه – أي في توزيع المطلوب على جلسات الأعيان، ولذا فهو لا يميل – ولا يحب – التعامل مع غيرهم، فهو يترك المسائل لواحد آخر من بيت الفخراني ليتعامل مع الأقل في الدرجة الاجتماعية، (حاولت أن أتذكر اسم هذا التاجر

الكبير الأعور دون جدوى) كان يقول إن أولاد غير الـــذوات يفاصلون ويساومون في سعر الصنف، وهو لا يطيق ذلـــك، وكان المعهود أن حجز كميات الحشيش تبدأ مبكرًا، في العادة فإن التاجر كان يحتفظ لعملائه بأنصبتهم، غيـــر أن حـــالات سفر بعض أصحاب السهرات، وما يترتب على ذلـــك مـــن ارتباط كمية الحشيش بوجودهم في البلـــد، أدى إلـــى بيـــع الصنف بعد حفلة أم كلثوم بسعر أرخص كثيرا مـــن قبلهـــا، ولذا فإن الحجز أصبح ملزمًا للطرفين والصنف لا يخضـــع للعب أو السفر أو الهزار، ولاسيما إذا كان المطـــروح مـــن الصنف يحمل اسم: مساء الهنا أو غني لـــي شـــوي شـــوي فيكون حجز الصنف مساء يوم الثلاثاء عادة، وبناء على هذا الترتيب تكون قد تحددت قيمة الاستعداد المادي لكل فرد، إذ أن المبلغ المجموع من الجماعة الساهرة سوف يحدد الخطوة التالية (عند أمين أبو علة)، وهو المختص بالمشـــروبات – لا مؤاخذة – الروحية، الأثرياء كـــانوا يرســـلون رجـــالهم بالسيارات (في العادة: سائقي سياراتهم) لإحضار الويســـكي الفاخر (أبو قطة سوداء – أو – أبو كارت أسود أو كـــارت أحمر: أي المرسوم عليه جوكر الكوتشينة – أو أبو شـــريط

ذهبي – " أي شيفيز ريجال " – أو أبو جرس – لعله الجن الإنجليزي المرسومة على زجاجته ساعة بيج بن ...)، كانوا يستجلبون هذا الويسكي الفاخر من ملوي أو المنيا أو أسيوط، وكثيرًا ما كان يرافق القوم في سهراتهم ضباط السلطة أيامها، الذين يهيمنون على مقدرات كل الأمور، أما أمين أبو علة – لأن بجسده نتوءا ظهريا كالذي كان لأحدب نوتردام – فقد كان محله الشهير يبيع البراندي أبو أربع نجوم أو ثلاثة أو خمسة، والروم، والنبيت الأبيض والأحمر، ثم أهم من كل هذه المشروبات – لا مؤاخذة – الروحية كان الزبيب الصعيدي، سواء المصنوع في بيوت معينة يعرف طريقها أمين أبو علة أو واحد من صبيانه، أو النوع الذي تنتجه شركات الخمور في الإسكندرية أو الظاهر أو بولاق أبو العلا أو الفيوم، ونادرًا ما كان القوم يهتمون – ليلة أم كلثوم – بالبيرة أم نجمة، هي مشروب الفقراء والمراهقين...

كانت الكوميونات – أو البؤر – أو التنظيمات تصل إلى أوجها بعد عشاء الخميس، وسوف تفاجأ بأن مراكز هذه الوحدات الساهرة سوف تحظى برش الماء أمام أبوابها، كما

أن المشرف على السهرة- وهو عادة ليس صاحب البيت- يكون قد اطمأن على حالة الراديو، والبطارية، وكمية الترمس والحمص (حمص الشام وليس الحمص الأصفر)، والجبن القديم، وأكواب المشروب (لم نكن نعرف مكعبات الثلج أيامها)، ثم الجوزة، وأبكاو المعسل، والفحم، والمنقد الذي سوف تعد فيه جمرات النار، وأطباق تقديم الطعام، والكوتشينة (كانت ٣١ أشهر لعبات القمار عند الجماعة التي أعرفها)، ومن المهم أيضًا أن يكون مع المشرف مبالغ نقدية مفكوكة إلى قروش صغيرة لزوم المضاربة في ٣١، كما أن الأمر لا يخلو من سبت فاكهة: برتقال ويوسفي وبلح، وتكون الجرائد – لمن يستطيع الحصول على جرائد – قد نشرت عناوين ما قد تشدو به ست الكل أم كلثوم من أغان، وفي بعض الأحيان كانت أم كلثوم تفاجئ الجميع بغناء ما لا يكون في الحسبان ...

بعد العاشرة – وأحيانًا حتى الساعة الحادية عشرة – تبدأ أصوات انفتاح العقول على قاعة الغناء، التي ينساب منها صوت المذيع – حسني الحديدي أول من عرفت – هامسًا واعدًا بأرق الألحان وأعذبها، متساميًا مع السامعين

المنتشرين في خلايا لذائذ مصر كلها – ليصل بهم إلى أوكار السماء فوق الغيوم، حيث تبدأ الأكف في التصفيق عند دخول أفراد الفرقة الموسيقية، محمد عبده صـــالح علـــى القـــانون وأحمد الحفناوي على الكمان والقصبجي على العود، وتبـــدأ الدندنة المتسربلة من ضبط الآلات تصل إلى جوانحنا لتفـــتح الباب، بعدها ينهمر التصفيق فـــور وصـــول الســـت إلـــى المسرح، فتتجمع الدندنات لتعلو قليلا ثم تنخفض حتى تـــذبل ليصبح للصمت سطوة متألقة في بدايات الضباب الأول مـــن سحب التعميرة المكركرة، ولا يستمر هذا الصمت المتوغـــل في الكيان طويلا، فالموسيقى تبدأ، ليعود التصـــفيق تاركًـــا الجماهير تزغرد وتنفعل، وتصرخ، وتنتج الآثار الصـــوتية التي تمتزج بالاستحسان الملعون. (وهي ظاهرة لم يقتـــرب من تحليلها أحد، حيث تعودنا أن نمـــدح المتميـــز، الـــذي، لا مثيل له بأنه ابن كلـــب أو ابـــن حـــرام)، ويصـــل هـــذا الاستحسان اللاعن للمغنية العظيمة، أو لقائد فرقتها، أو للذي لحن لها هذه الوصلة – إلى قمته، بعدها تنساب الأرواح فـــي انفعالها السعيد، دون اهتمام بما قد يحدث خلال كـــل ذلـــك، يا ممدوح أفندي، أو يا عبد المنعم أفندي، فيه بنت عاوزاك،

ويتخلص الشخص المطلوب من الهيام والامتــزاج لينســلخ خارجًا فيجد ابنه أو بنته موفدات من بيته ليأخذوا من أبــيهم نقودًا لحاجتهم إليها، بل الأهم من ذلك أن تفاجأ ببعض أفراد الوكر المنتشي يقوم فجأة – وفي غضب – ليرى الذي يطلبه بالخارج، ليكون واحدًا ممن لهم عنده نقود: من باب الســلف مثلا أو الجزار أو أحد الجيران، فيأتي إليه في خلية أم كلثوم اقتضاء لحقه، وعلى هذه الوتيرة تحــدث مثيــرات البكــاء أو الغضب، مرضى يصرخون ألمًا فلا يسأل عنهم أحد، عيل تقرصه عقربة فيحاولون تأخير نقله إلى المستشــفى حتــى تنتهي أم كلثوم من الوصلة الأولى.

ويظل الأفراد يتقافزون في سعادة صارخة وأصواتهم أحيانًا تشارك أم كلثوم غناءها، هذا دون أن نقترب بالوصف لحالات العشاق الذين يضنيهم العشق، فيظلون صامتين مــع قليل من هز الدماغ، أو غارقين في الإنصات مع المبالغة في سحب أنفاس الحشيش العميق: ســجائر أو جــوزة والتــأوه بإصدار الآهات الحارة التي تلهب المكــان شــجنًا، وبــين الوصلات يكون مناسبًا أن يكثر الالتهام، أو تقديم فص أفيون تحت اللسان، مع التنبيه بعدم استحلاب الأفيون مــع شــرب

الخمور – لكــن ذوي التجــارب يســتطيعون أن يلتهمــوا ويستحلبوا ويشربوا ما لا طاقة للغلابة به – أي الخاوون من التجارب العميقة، حيث يصل الجميع إلى الوصلة الثالثــة – أي الأخيرة بعد كفاح مثابر بين هــالات المتعــة المنتشــية، إذ تكون الوصلة الأخيرة – في حالات كثيرة – تتناثر شرائح من موسيقى وآهات وأغنيــات، لأفــراد لا يســتطيعون أن ينصبوا حيلهم.

كثيرون – قبل أذان الفجر مباشرة – كانوا يسقطون هامدين علــى الأرض وراء الأبــواب، أبــواب الســهرة، أو أبواب زوجاتهم، دون التوقف عن إصــدار الشــفرة ذات المعني الجميل: يا سلام يا ست ... يا سلام يا ست حتى بعد ظهور الشمس في سماء الصباح بساعات طويلة.

الرحلة ... النعمانية

●● تركت خلفـــي وجـــع الـــدماغ، والضـــجيج، ومؤتمر الرواية واحتفالية أدباء العالم العربـــي لتدشـــين أول روائي عربي يفوز باقتطاف أول جائزة مصرية ذات شـــأن مالي، بعد أن تضاعلت قيمة جوائز دولتنا بســـبب التضـــخم الفظيع الذي يحيطها الآن: التشجيعية – مثلا – لا تزال حتى كتابة هذه السطور، ألف جنيه (يعنـــي ثمـــن نشـــر قصـــة قصيرة)، ويقال إنه تم تعديلها، وأنها قد تضاعفت مـــرات، غير أن قيمة جائزة الرواية العربية التي نحتفل بها الآن فـــي القاهرة (خمسون ألف جنيه) تدخل في الأرقام ذات الشأن – في المنطقة العربية، والتي وصلت الجوائز فيها إلى نصـــف مليون جنيه، كل الأدباء المســـاهمين فـــي إنجـــاز الروايـــة المعاصرة يصلون الآن صلاة الرواية، وقـــد صـــنع ذلـــك ضجيجًا مرهقًا وثرثرة غير مسئولة ومجانيـــة كـــل واحـــد يعطيك انطباعًا بأنه يعرف الفائز، حتى إن إحـــدى الجرائـــد نشرت الأسماء المتوقعة، على أساس أنها الأســـماء الفـــائزة فعلا.

تركت خلفي – كل وجع الدماغ هذا – واتجهت إلـــى الصعيد، آخر فبراير يحيطك بالجو الدافئ الجميل الذي بسببه يصبح الصعيد مناسبًا للمرح والسهر واستحلاب الـــذكريات، كنت في طريقي لتلبية دعوة مدير ثقافــة أســيوط الصــديق محمد عبد المنعم، والذي أعرفه منذ سنوات طويلـــة، حيــث نتوجه معًا – فور لقائنا في أسيوط – إلى مدينة أبو تيج، كي نشهد تجارب النص المسرحي الذي كتبه بهيج إسماعيل عن روايتي – (من التاريخ السري لنعمان عبد الحافظ)، ولم أكن أعرف أن بهيج فعل ذلك، إنه كاتب مسرحي دءوب، عرفت اسمه أول مرة خلال مؤتمر الزقازيق الشهير عـــام ١٩٦٩، والذي فازت فيه مسرحيته (حلم يوسف) بالجــائزة العليـــا، ولم يسمح لي إبراهيم شهاب مدير شركة المقاولون العـــرب بالسفر من أسوان كي أشارك في هذا المـــؤتمر بـــدعوى أن (هذا كلام فارغ)، برغم اتصال الدكتور حكمـــت أبـــو زيـــد بمحافظ أسوان أيامها، لكنه صمم (يا تـــرى أيـــن إبـــراهيم شهاب الآن؟)، المهم أن هذا المؤتمر المبكر كان وراء كـــل مؤتمرات أدباء مصر – في الأقاليم وغير الأقـــاليم – بعـــد ذلك، ومنه تحركت أسماء كثيرة، منها بهيج إسماعيل، الـــذي

أراه مصادفة كلما توجهنا إلى إتيليه القاهرة) نتبادل التحيــة والسلامات مع أهمية اللقاء، لكني لم ألتق بهــذا المســرحي المتميز في جلسة حتى الآن، لم أكــن أعــرف أنــه فعلهـا واصطاد بطلي (نعمان عبد الحافظ) من النص الروائي إلـى التشكيل المسرحي، وهو أمر يسعدني بالطبع، حتى لـو أدى ذلك إلى أن أتركه له أسيرًا مسرحيًا بــدون المطالبــة بــأي حقوق الأسر، مع عدم الإصرار على إطلاق سراحه، يكفيني أن يصبح – هذا البطل الأثير – وليست الأسير – موضــع اهتمام فنان مسرحي مثل بهيج إسماعيل، تمامــا كمــا نــال حظوته في الترجمة إلى عدة لغــات: الهولنديــة والفرنســية واليابانية، بالإضافة إلى دراسات – حول هذا الوغد: نعمــان – في أكثر من موقع أكاديمي.

كل هذا دار في ذهني وأنا أصحب – في أســيوط – الشاعر سعد عبد الرحمن، والفنان التشكيلي الــذي عرفــت فرشاته الساحرة موضعها المأمول في معارض العالم: ســعد زغلول، الغارق الآن في إعادة المجــد للــدانتيلا المصــرية الشهيرة، حيث وصلنا أبو تيج في التاســعة لــيلا، والجــو

لا يزال متأثرًا بحرارة النهار، نعم: فقد كان الليل دافئًا، مثل بقية القلوب المتشاركة في الآمال الكبرى للرواية في القاهرة.

خلال تلك الرحلة كان مؤتمر الرواية قد أنهى احتفاليته بفوز عبد الرحمن منيف بالجائزة، وهو اختيار موفق بكل المقاييس، ولابد من الإقرار بأن وراء هذا الجهد – وما فيه من تغيرات وتطورات – المثابر جابر عصفور، بما فيه من عناد، وما لديه من تصميم، صحيح أن السينما المصرية، والمسرح المصري، سبق لهما أن قطعا مرحلة رائعة في ذات طريق الجائزة المصرية الشاملة لكل الجهد العربي ثم العالمي ووراء ذلك – كما معروف سعد الدين وهبه، هذا الراحل الذي من الصعب تعويضه، غير أن الإبداع الروائي – والقصصي – والشعري – ظل مجرد احتفالية مصرية دون الخروج عن إطارنا المحلي، وبدعوى عصر الرواية نالت الرواية العربية القسط الأول من هذا التطور العظيم هذا العام، وواضح انحياز جابر عصفور للفن الروائي؛ ذلك أنه – ومن سنوات مصمم على أننا نعيش عصر الرواية وبعد أن تحقق للرواية العربية أقصى ما يتمنى لها مصريًا، علينا أن نتباحث مع جابر عصفور كي نبدأ

اللعبة الجديدة: هذا عصر القصة القصيرة ونحشد الجهود في سبيل ذلك، ليس فقط لصالح القصة القصيرة، بل لصالحي أنا بالذات، وسوف نجند أنفسنا – في الحقبة التي تلـــي تحقيـــق المراد للقصة القصيرة – بإعلان الفترة التي تليهـــا عصـــرًا للشعر ... قل إن شاء الله.

وإلا: هل سنترك الأمر للروايـــة فقـــط يـــا دكتـــور جابر؟!!

كان واضحا – ومن الوهلة الأولـــى – أن صـــياغة روايتي إلى نص مسرحي – قام علـــى الهيكـــل الأساســـي، وقد احتلت الطقوس الأهمية العليا، وقد قـــال لـــي المخـــرج حمدي طلبة إنه عايش بهـــيج إســـماعيل خـــلال الصـــياغة المسرحية، أو التأليف من جديد لحساب المسرح، وقد ســـبق لهذا النص أن عولج مســـرحيًا مـــرات، قـــام بـــذلك طلبـــة البكالوريوس في معهد الفنون المسرحية، وكـــل المعالجـــات ظلت مشغولة بما لم يطف في ذهني، معالجة – كمثال – كان مخرجها – إبراهيم الفو (الذي يعمل الآن مع عادل إمام فـــي الزعيم) ومعه محمود البزاوي – جعلت من أمريكا طرفًا في الصياغة المسرحية، كما أن عرضًا آخر انشغل بقضية السيد

والد نعمان الذي باع الجمل وجرى وراء واحدة من الغوازي عائقًا، ليصبح من جوقتها، وهي مسألة ثانوية جاءت في سطور قلائل من الرواية.

ولذا فلم أندهش حينما وجدت نصا مسرحيًا – في أبو تيج – مشغولا بالطقوس، طقوس الميلاد، وطقوس الموت (الدفن) وطقوس الختان، وطقوس التلاقي الجنسي في الزواج وكانت الموسيقى تحوي قدرًا مذهلا من الإيقاعات الريفية (ومؤلفها مدحت نظير)، مما جعل الرحلة النعمانية احتفالية جماعية بهذا البطل الغلبان الذي وصفه الدكتور عبد الحميد إبراهيم – في مقال عن الرواية – بالبطل الوغد ...!! وكنت سعيدًا سعادة قصوى وتيار من الانتشاء يغرق حواسي، وكأنها المرة الأولى التي أتحقق فيها، حيث عدت أرتدي الطاقية المقصبة بخيوط ذهبية، والجلباب الأبيض الجديد في طريقي لعملية الختان، فأنا واحد من أبناء الريف الذين ختنوا بعد أن أصبحت صبيًا (كنت في التاسعة من عمري)، ولعلها التقاليد أيامها التي كانت تقتضي الوفاء بالنذور لصالح أولياء الله، لم يكن نعمان هو الذي يجري على مسرح أبو تيج، كنت أنا حتى ولو كانت الطقوس القائمة ليست هي بالتحديد

طقوسنا أيامها، وعندما قام الحلاق بالمحاولات الأولى لختان نعمان، تمنيت لو أن ضجيج الطقوس انخفض حتـــى نحـــس بحركة الموسى وهي تقترب تمهيدًا لاقتطاع القلفة الأولى من نعمان، وكانت المناقشة – فور انتهـــاء العـــرض – جـــادة وواعية شارك فيها الضيوف والقائمون على العمل، وحاولت أن أتنصل من مناقشة النص المسرحي – على أساس أنني – بتكويني – متعصب للنص الأدبي – بصفتي صاحبه، وأنـــا مثل أم نعمان: لا ترى في ولدها سوى الصحيح السليم – مع أن الولد – يا عيني: غلبان، ولذلك أعلنت سعادتي القصـــوى لهذا العرض مع التنبيه باستيلاء الطقوس على كل ما كنـــت أود أن يكون تمثيلا فقط.

وخصوصًا أن الذي قام بدور نعمان – واسمه عمـــاد حمدي ... كان نموذجًا ذا تكوينات جسدية وقدرات حركيـــة قادرة عني الاستقطاب، وســـط كـــل التجمعـــات أو تـــداخل واحتكاك الشخصيات يظل عماد حمدي المركـــز الأساســـي المهيمن على الرؤية، وهو أمر يمكن أن يكون ذا فائدة فـــي مسارح الأقاليم التي عادة ما تختفي منها الشخصية التمثيليـــة

المؤثرة، كما أن ممثلا آخر يشبه الطفل – كان قويًا وناضجًا، وقادرًا على إثارة الدهشة، والمرح أيضًا.

وقد قام ممثل هو المسيو عيسى عمر (ولا أعرف إن كانت كلمة المسيو مقصود بها اللقب الفرنسي أم لا) بأداء دوري، دوري أنا المؤلف، حيث كان يقوم بالتعليق على الأحداث أو الاعتراض عليها، وقد قال المخرج – حمدي طلبة – بأن شخصية المؤلف (الذي هو أنا) تم توليدها مسرحيًا من خلال حركة هوامش النص الأدبي، ومع سعادتي القصوى بهذا (الاستنساخ) فإني أرى أن شخصية المؤلف الأدبي المعلق على النص المسرحي تحتاج إلى إعادة توزيع حتى يصبح ضابطًا للعرض، وصانعًا لإيقاعه وتوازناته، إذ أن هذه الشخصية توجد بتركيز وكثافة في بعض المواقف – وهي قليلة، ثم تختفي عدة مشاهد ولوقت طويل حتى تظهر مرة أخرى.

كانت ليلة الرحلة النعمانية في أبو تيج طاغية بالمتعة، وكنا جميعًا في حالة صفاء لم يعكره حتى أطنان الفول السوداني التي أحضرها لنا ابن أبو تيج الشاعر شوقي أبو ناجي، والذي حاذرت أن يحل تقشير السوداني، وصوت

تحطيم وحداته في الأفواه، محل المناقشات الجـادة، والتـي تبادلنا فيها – جميعا – كثيرا من الآراء المتفاعلـة، والتـي – بالتأكيد – كنا نحتاج إليها، مع إتاحة الفرصة، للشاعر سعد الدين عبد الرحمن ليأخذ أطنان السـوداني هديـة خالصـة منزوعة الحقد، حيث ظل نعمان عبد الحافظ خالي – ابن عم أمي – الغلبان، والذي مات منذ سنوات قليلة، دون أن يدرك أنه أصبح مترجمًا إلى عدة لغات، ثم أصبح بطلا مسـرحيًا ينام بين أحضان جميلات المدن، آه بالمناسبة كانت أم نعمان والسيدة الجليلة فوقية – ترياقان دفئًا أنثويًا ذا جمال لم يحـظ بهما الثلاثة من قبل: نعمان، والمؤلف، وصـاحب الرؤيـة المسرحية أيضًا.

باب في الحيوان الروائي

●● عاد الحيوان الروائي يضغط علـــى قلمـــي، إذ لا تزال نواتج الأدب العربي الحديث تكاد تكون خاوية من حيوانها الخـــاص، أي أن هـــذا النتـــاج الروائـــي الضـــخم لا يتضمن نسبة معقولة من الحيوانات المؤثرة فـــي الـــنص، وسيكون مفزعًا أن تدرك أن سواحل بلادنا علـــى البحـــرين الأحمر والأبيض لم تستطع أن تزج بما يعتمـــل فيهـــا مـــن أسماك مختلفة الأنواع والأحجام إلا بمشهد واحد في روايـــة (فساد الأمكنة) لصبري موسى، حينما افترش عبده كريشاب عروس البحر (نوع من السمك الأسطوري والواقعي أيضًـــا) ليمارس معها الجنس تسلية – وإبهاجـــا – للملـــك فـــاروق وحاشيته في جنوب شرق الصحراء الشـــرقية، ومـــن بـــاب التنبيه فإن الأسماك التي تلمع في بعض الإنتاج الأدبي فـــي الإسكندرية وبورسعيد والسويس – وأية مدن ساحلية أخـــرى – لا تقوم بدور مؤثر كما هي الحال في الحـــوت – مـــوبي ديك) عند هرمان ملفيل أو سمكة الماكريل الضـــخمة عنـــد هيمنجواي في العجوز والبحر، أي أنني لا أقصد أن يـــدخل الحيوان عالم الرواية لمجرد أنه عبر البحـــر أو البـــر إلـــى

الموائد ثم الأفواه، وبذلك ستظل كـل العجـول والخـراف والجديان والأرانب التي ذبحت في وادي النيل – نذورًا كانت أو احتفالا – تحصيل حاصل لا يعني أنها تحملت نصا روائيًا أي لابد لهذه المخلوقات أن تمارس دورًا فاعلا فـي عقـل الرواية وأرضها، ومن الضروري هنا أن نشير إلى أن نسبة عالية من تراثنا متشابكة مع الحيوان أكثر – بمراحل – مـن تشابك الإنتاج العصري، حوت يونس، وناقة البسوس (التي أشعلت تلك الحرب القبلية الدامية لمدة أربعين عاما وكان من ضحاياها – وأبطالها – كليب وجليلـة وجسـاس) وهدهـد سليمان عليه السلام، وبقرة موسى عليه السـلام، وثعابينـه أيضًا، وخروف إسماعيل عليه السلام، وكلب أهل الكهـف، وذئب يوسف عليه السلام، وناقة صالح عليه السلام، ثم هناك رخ السندباد البحري، والغزالة التي أرضعت حي بن يقظان لابن طفيل، وفيل أبرهة وجواد ابن سراقة الـذي غاصـت قوادمه في الرمال ليحول بين راكبه وبـين الإبـلاغ عـن الطريق الذي سلكه سيدنا محمد صلى الله عليه وسـلم وأبـو بكر الصديق في الهجرة، ثم حصان حاتم الطائي الذي كـان أثيرا لديه لكنه ضحى به كرما ليحتفي ببعض العابرين، فبكى

الحصان سعادة، (التعليق من عندي) ويجب ألا ننسى الأتان (أنثى الحمار) التي أمتطتها السيدة العذراء، وقــد احتضــنت طفلها السيد المسيح عليه السلام هروبًا من جحيم اليهود، في رحلة مرهقة – يصحبها يوسف النجار – حتى جبل العذراء المطل على مدينة أسيوط، ثم هناك أيضًا الغزالة التي بكــت حينما أحست بأن النبي محمد صلى الله عليه وسلم وصـــاحبه يعانيان من العطش، وغير ذلك من صنوف الحيــوان التـــي انتشرت في شرايين النصوص الدينية أو التراث الشعبي.

والأدب العالمي في القرون الحديثة يشغي بحيوانات ذات تأثير متفاعل في النص الروائي، بنسبة واضحة، ومــن معلوماتي المحدودة، ومع عدم استبعاد الحوت – موابي ديك – لملفيل وسمكة العجوز والبحر لهيمنجواي، سنكتشــف أن الثعلب لم يظهر داخل أدبنا في حين أنــه كــان ذا حضــور واضح في رواية للإنجليزي الشهير لورنس (نعم هو نفســه لورنس الذي اشتهر بتصويره للعلاقات والمشاعر الجامحة – والمحرجة بالنسبة لنا)، كما أن البلاد العربية لم تســتطع أن تزف ذئبًا إلى ضفاف الإبداع حيث لم يظهر الذئب العربـــي في أي عمل قصصي إلى الآن حتى ولو كان رمزا في "ذئب

البراري" لهيرمان هسه الألماني ثم هناك مهر أحمر (حصان صغير) يصيبه مرض غامض فيؤثر في معنويــات أســرة أمريكية تحتل موقعها – مع المهر الأحمر – في عمل مــن أجمل أعمال شتاينبك. وقد أدى الدب مهمة ساخنة وشاقة في عملين لوليم فولكنر قصة قصيرة ثم عاد فصاغها المؤلف في رواية متوسطة الطول، أما الشاعر والروائي أدجار آلان بو فقد استهلك في قصائده، وقصصه عددا لا يستهان بــه مــن العناكب والخفافيش والغربــان والقطــط الســوداء وطيــور النورس (ومعها أنواع أخــرى) كانــت تفتــرش نصــوص الأمريكي فيتزجرالد، وأرى أن يكون مفيدًا أن نشــير إلــى حصان تشيكوف، أو هذا الذئب الــذي بــدأ يعــوي حينمــا انكسرت ساق الصائد الأمريكي في أفريقيــا، حيــث بــدأت رائحة التعفن (الغرغرينــا) تعطــي رأيــا واضــحًا فــي المغامرين الأوربيين عند هيمنجواي في ثلــوج كليمنجــارو، ولعل مشهد اليزابيث تايلور، فاتنة الشاشــة الأمريكيــة فــي الحقبة الماضية – كانت تشوينا باشتهائها الفائر فــي الفــيلم المأخوذ عن مسرحية تنس ويليامز: قطة فوق صفيح ساخن، ولا أود الدخول في عالم السينما الغربي الذي يظــل – فــي

ركن من أركان تقدمه الإبداعي – اهتمامه بما هـو فاعـل يتفاعل في حركة الإنسان، لقد كان الفيلم السينمائي (الطيور) لهيتشكوك قصة قصيرة في الأصل وهو من أجمل الأفـلام عمومًا، وحتى لا ننسى فسوف نشير إلى الحمار والحصـان عند سرفانتس حينما استخدمهما في علاقـة موازيـة لـدون كيشوت وتابعه سانكوبانزا (أرجو أن أكون قد سجلت الاسـم صحيحا لأنه من الذاكرة)، ثم كان حمار رامـون خمينيـث (الذي أرجعوا إليه حمار الحكيم – فيما بعد) ولابد أن ثيرانًـا وبقرًا وجديانًا وماعزًا ونسورًا وصـقورًا وكلابًـا ونعاجًـا وثعابين وسباعًا ونمورًا وعصافير وهداهد وسمانًا وفئرانًـا وتماسيح وأرانب، ومئات المخلوقـات الأرضـية والجويـة والمائية قد قامت بأدوارها الفاعلة في شتى أنحاء العالم، لكن معلوماتنا المسكينة الغلبانة لا تستطيع إدراكها ...

لكن ذلك لا يعني أن النص الروائي العربي خلا من حيواناته وطيوره وأسماكه، مرة أخرى: إن ذلك يمثل نسبة ضئيلة بالنسبة لحجم هذا الإنتاج، ويرجع ذلك – في أول أسبابه – أن أهم غالبية – بل كل – المبدعين يقيمون في المدن، وهي مجتمعات تيسر لنا وسائل الحركة والمتعة دون التورط في بيئات أخرى تفرض علينا الاحتكاك والتعامل مع عناصر حيوية حيوانية، كما أن الرغبة في مغادرة المدينة إلى موقع آخر – شاطئ البحر مثلا – تنقل معها تيسيرات وتشكيلات الراحة المدنية، فهل تعتقد أن الحوت سوف يواجه نجيب محفوظ على شاطئ الإسكندرية؟ أو أن جملا هائجًا سوف يداهم بيت جمال الغيطاني ويدمر بكواهله حجرة المائدة أو المكتبة؟ أو أن يوسف القعيد سوف يدخل الحمام قبل الفجر فيفاجأ بقرد يعبث في رافعة السيفون؟ أو مجيد طوبيًا يمد ذراعه كي يطفئ الأباجورة فيكتشف أن زرافة تلحس في صف الكتب، أو سعيد الكفراوي حين يبحث عن جريدة اليوم يجدها مفروشة تحت ثعبان كوبرا وقد أغفى في النوم؟ أو هالة البدري تشير إلى سيارة تاكسي لتذهب إلى عملها وفور جلوسها تستطيع أن تكتشف أن السائق جاموسة

تخور بصوت مشابه لأصـــوات آلات تنبيــه هــذه الأيـــام؟ أو سلوى بكر حين تقفز خارجة من باب الإيتيليه ينبهها أحدنا أن تقف ساكنة ولا تتحرك بحثا عن حل لاصطياد العقــرب التي تسعى على كم فستانها؟ أو أبو المعاطي أبو النجا فــور أن يسترخي وراء مكتبه، يمد أصـــابعه للجــرس اســتدعاء لفنجان قهوة، فينفتح حنك مروع ذو أنياب لسبع جميل يقعـــى تحت زر الجرس مباشرة، أو سليمان فياض حين نزوله من فوق سرير الصباح بعد الظهر: يتحرج بين صخور انهيـــار جليدي مفاجئ يلقي به في أعماق الوديان، وحين يفتح عيونه يكون غراب قابيل قريبًا منه ينحبــه حظـــه فـــي ســخرية؟ أو إبراهيم عبد المجيد الذي يضطر أن يلجأ لاستخدام ذئبـــه المفضل حتى يصل إلى عمله في الوقت المناسب، أو ســـهام بيومي التي تحتفظ ببقايا رحلات صيدها في حديقتها المفعمة بالأفيال والنمور، أو بهاء طاهر الذي يدفعه الطبيب المعـــالج دفعا كي يمتطي ثورًا هائجًا يخترق به عالم التأمل والسكون والمرح المهذب؟ أو إدريس علي وهو في حاجة قصـــوى أن يخلع ذراعه من بين فكي تمساح دون أن ينام على شـــواطئ نيل النوبة؟ مع أن هذا التمســـاح بالـــذات يحمـــل ودا أليفًـــا

وطاغيًا بهذا الكاتب بالذات؟ أو فاروق خورشيد الذي يجــب أن يؤسر لمدة يومين في غياهب سرداب من تلك التي تمتلئ بها الأساطير الشعبية – الغارق وجدانيًا فيها؟ وسيكون مناسبا لخيري شلبي – المتوحد مع زوايا مقابر المدن – أن تتغلــق عليه – أيضًا – جبانة قديمة ذات عمق ينشع بالماء المتحللــة فيه جثث البشر المتراقصة مع موســيقى حركــة الثعــابين والسحالي – وبالذات السحالي المخططة لأن في جوفها مفتاح الجنة لكن ذاك لا يمنعنا من الإشارة ذات الضرورة والأهمية أيضًا إلى المخلوقات القليلة التي اخترقت نصوصنا الأدبيــة، والتي لا تمثل نسبة مؤثرة إزاء الحجم الكلي الضخم لإنتاجنا: بقرة مسعود في (الأرض) عند عبد الرحمن الشرقاوي، وفي موقف واحد سريع، نعجة لامرأة غجرية وكلب وقطة (عنتر وجولييت) عند يحيى حقي، كروان شديد الموسيقية المهذبــة يصدر دعاءه الجميل عند طه حسين. وديك أحمر عند فاروق منيب – وهو بالطبع يؤدي دوره بصفته ديكا لا يســتطيع أن يكون أسطوريًا مثل (زهر الفول) الذي أنشأته بمعرفتي فتأثر به بعض عمال الأدب واستدرجوه إلــى عقــولهم الضــيقة وسطورهم الكئيبة بزعم أنــه خاصــتهم، وأن الأدب ملــيء

بالديوك. مع أني أعرف أنهم احتازوه على أساس أنه حمامة أو عنكبوت أو تمساح، لا فرق في ثقافتهم المثيرة للغثيان، ثم لابد أن نذكر بالخير مذكرات دجاجة للفلسطيني إسحق موسى الحسيني، والحمار الذي أثلج سطورنا أحقابًا طويلــة، عنــد توفيق الحكيم، وعند صبري موسى نجد – غير ما ذكرنــاه عن عروسة البحر الخاصة بعبده كريشاب في فساد الأمكنة: حمار يأتي بحمولته من الخضار فوق سيارة كــارو تســعى للعاصمة في الفجر، ينام صاحبها تاركا أمر الطريق للحمار، حينئذ – ومن باب التسلية – يقوم شــاب مســتهتر بإعــادة الحمار – وخلفه الكارو – للخف، فيسحب الحمــار – كــل الحمولة ليعود من جديد إلى حقول الدلتا، ولم أجد أن صبري موسى ينتقد القيادة النائمة، وربما صبري موسى نفسه لم يكن يعرف ذلك، حمار آخر عند رفقي بــدوي اســترقته كاتبــة واستخدمته في إثبات أنها أديبة مستقرة، كما أن مؤلفًا أدبيًــا لا يعرفه الكثيرون كان مغرمًــا بالعصــافير، هــو الرســام عبد السميع عبد الله والد الزميل عمرو عبد الســميع، ولــه إسهامات واضحة في الإبداع الأدبي، عمرو أيضًا فنان رسام وصحفي، كما أن حيوانــا أو اثنــين ظهــرا فــي كتابــات

عبد الفتاح رزق، أما النمل الأسود فقد داهم قصة جميلة ومبكرة لعبد الله الطوخي، وبعد ثلاثين عامًا هاجم رواية كاملة لعبد الوهاب، الأسواني، وكانت الذئاب الجائعة مجرد توصيف لأفعال أبطال أحاطوا ببطلة قصة عند محمود البدوي، أي لم يكن في القصة ذئاب من تلك الذئاب المقصودة بكتابتي هذه. بالتأكيد هناك أعمال قامت فيها الحيوانات – أو المخلوقات غير الإنسانية – بدور مؤثر، لم تصل إليها يدي، لكن الأكثر إزجاء للاستغراب أن هذه المخلوقات تركت أثرها في أسماء عدد وافر من الذين أسهموا أو أثروا في ثقافتنا المعاصرة: أمين يوسف غراب، ويوسف السباعي، ثروت عكاشة (العكاشة يعني العنكبوت) ومحمود السعدني (اسم للحمامة: السعدانة، والسعدان نوع من القرود) ومريد البرغوثي، لويس عوض (من أسماء صغار الإبل) والغيطاني (من ألقاب ذكور الجمال المسنة – أي الكسولة التي لا تبارح الحقول) وخيري شلبي (الشلبية المرأة ذات الصدر اللذيذ مثل نوع من السمك الصغير منه شلباية والكبير شلبية)، عصام الجمل (لكنه من أدباء الإسكندرية)، بدر الديب وعلاء الديب، محمود دياب،

عبد الحي دياب، سعيد الكفراوي (نوع من صـــغار الجيـــاد يرهقه أهله بالعمل مبكرًا) وإذا كان هناك ثعبان يطلق عليه الأصلة يصبح الأمر متسقًا (إذا قمنا بتثنيته – مع إبـــراهيم أصلان) وفي الفارسية يطلق ما يوازي لفظ الطـــاهر علـــى الفيل لأنه لا يقترب من أي نجاسة، بهاء طـــاهر لا يعـــرف ذلك، عبد الرحمن الخميسي (جيوش مـــن الجمـــال) ســـمير غريب (اسم العفريت من الجن يستحضر خلال طقوس الزار مـــع شـــمهورش والســـوداني والفتـــان والفطســـان) وعبد الرحمن أبو عوف (حاولـــت أن أقـــع علـــى مقابـــل أبو عوف دون جدوى وخصوصًا أنه يعني طائرًا كالبومـــة أو الغراب أو حيوانا كالذئب، ولذا فســـوف يعـــوزني دليـــل لغوي صارم)، سعيد بكر (الفتي من الإبل)، كل ذلك وغيـــره كثير يأتي في مجال رغبتنا الكامنة أن يستغل النص الروائي ما يدور حولنا من مخلوقات لم تتج منها أسماؤنا، سيرا فـــي أعقاب آبائنا المؤلفين: ابن ثور الهلالي وابن الرومـــي (أنـــا أقصد الديك الرومي وليس المواطن الرومي) وابـــن الكلـــب وابن الهيثم وجعفر بن ثعلب الأدفوي، وعشرات غيرهم لعلنا ننتبه ...

الكرامة، والرومانسية

محمد عبد الحليم عبد الله

●● حينذاك، في الحقبة الأولـــى مـــن عصـــري الحجري، خرجت وارم المشاعر من تحت أشجار زيزفـــون المنفلوطي، كي تجتاحني أعاصير تمرد إحسان عبد القدوس، فقد ظل الجسد الأنثوي – بتضاريسه الملتهبة – يشعل النـــار في كياني المعروق المشدود على شبكة العلاقات السرية التي تحكم الريف، أي أنني كنت أسعى كي أدين كل شيء حولي دون أن أدرك، وكان إحسان عبد القدوس يدرك ذلك دون أن ألمس رائحة البيوت القروية في قصصه المنشـــأة لحســـاب المدينة، وأجسادها تمور داخل شـــوارع وفـــراش وشـــبابيك وأرصفة وشرفات المدن، وأقصى ما أفعله – بعد أن أريـــق أنفاسي على وسادتي – أن أتصارع مع الرفاق في مســـارب الحقول، ثم ننهي المرقعة قفزًا من فـــوق أغصـــان أشـــجار الجميز إلى أعماق الترعة، حيث يحيلنا الابتراد المائي إلـــى مجرد صبيان هادئين عائدين – في امتثال – إلى بيوتهم.

حينذاك في أوائـــل العمـــر الحجـــري المتمـــرد – الفوضوي أفضل – انحرفت داخل قصة لا أذكرهـــا، كـــان

بطلها الصبي قد أعلن أنـــه يـــتعلم الســـباحة علـــى رمـــل أو حصير، جذبتني الجملة مع أني أجيد الســـباحة، وجـــاءت لفظة (حصير) في موقعها تمامًا، فمع افتتاني بالقدرة الفائقـــة لإحسان عبد القدوس ليدفعنا لتحطـــيم الأســـوار وشـــجاعة الإفصاح عن المشاعر، إلا أن الحصير التي قضـــيت علـــى حلفائها عددا وفيرا من نوم سنوات العمر، ظلت بمنأى عـــن عالم إحسان عبد القدوس بما فيه من تمرد واجتياح، وكنت – حينذاك – قد وقعت في تجربة العشق المأمول – والمقـــرر، نعم: المقرر، ذلك أن قصص إحسان عبد القـــدوس وإثـــارة مشاعر المسحوقين ضد الطبقة الإقطاعية من مجلس قيـــادة الثورة، وما ترتب عن ذلك من صـــدور قـــانون الإصـــلاح الزراعي، وقيام عمر الشريف بالوقوف ضد زكي باشا رستم منتزعا منه ابنته فاتن حمامة، ثم ما أدى – بعد ذلك – مـــن انتزاع فاتن حمامة من قصرها لحساب الأكـــواخ، هيأنـــا – نحن صبيان ذلـــك العصـــر – لمداهمـــة بنـــات الأثريـــاء، بالخطابات والحكايات، والمواقعات الخيالية المرهقة، لنعود – آخر الأمر – إلى ظلال بيوتنا الفقيرة التي تمتلـــئ أبهاؤهـــا بالطمي الناشف، وغرف نومها بالحصير، كنت أتعلم السباحة

على رمل أو حصير، مع أنني كنت أفضل الجماعة الصبيانية عوما في الترع والجداول.

بعدها وقع واحد من الرفاق في قصة غرام مع بنت ناظر محطة سكة حديد البندر، وكنت قد توغلت كثيرًا فيما أستطيع الوصول إليه من كتابات هذا الذي يتعلم السباحة على رمل أو حصير، وأعترف بأن اسم محمد عبد الحليم عبد الله كان مصاغًا بشكل يخرجه من عالم ذوي الأسماء المؤثرة في الذاكرة: توفيق الحكيم، إحسان عبد القدوس، محمود تيمور، يوسف السباعي، أسماء لها قدرة واضحة في التشبث ضغطًا على طبلة الأذن، محمد عبد الحليم عبد الله، اسم عادي لا تستطيع أن تستبطنه في الكلام التلقائي بسهولة – هذا أن تذكرته، بطل إحسان فعل كذا، والسباعي كتب كذا، والحكيم نشر كذا، لكنك في حاجة إلى ثلاثية الاسم نصا بحذافيره حين تتعرض لمحمد عبد الحليم عبد الله، وحين نجحت في تنبيه رفاق القراءة إلى هذا الروائي الساحر، كان قبولهم له ضعيفًا فاترًا إزاء ما حاق بهم من مداهمات الكتابات الثورية المتمردة (بالمفهوم السلوكي وليس الفني) – وما يعنيه ذلك من نعومة بالغة في هذا الأسلوب تناوش المشاعر وتتلمس

الدفء بين الجوانح، وهو ما أفادنا كثيرا حين طلب مني صديقي الواقع توا في غرام ابنة ناظر المحطة، والذي يخرج الحكاية من انتظامها في القصص السائد في تلك الأيام من صراع طبقي دموي، طلب مني أن أكتب لحبيبته خطابًا – باسمه طبعا – حيث ستتولى أخت صديق لنا يمتلك أبوه طاحونة في البندر، توصيله إليها بصفتها زميلتها.

كانت التجربة جديدة تمامًا، ذلك أن الأمور كانت تجري قبل ذلك في الاحتكاك بأجساد البنات خلال جني القطن، أو تقشير كيزان الذرة الشامية، أو في الحلقات المتوالية لصناعة الكشك وطقوس الإعداد للختان أو الزواج، إنها المناسبات القدرية التي تتيح لنا إفراغ شحنات التوتر كي نتزود بالتوتر الجديد، وكل ذلك لا يصلح قاعدة للتعامل مع خطاب غرامي لبنت ناظر محطة السكة الحديد، كانت التجربة جديدة تمامًا.

لم أكن موضع ثقة صديقي المغرم العاشق، لكنه كان محرومًا من الخط الأنيق الجميل، مع غياب الحس الأدبي (لم أكن أعرف أني أتمتع بذلك حينذاك) في حين أني كنت نهما في القراءة والاطلاع، وكنت أعاني كثيرا حين أتحدث مع

أصدقائي عن نماذج أدبية، فلما تعرفوا على النماذج الأدبية كانت حوادثها هي المؤثرة، دون الأسلوب فلما تعرفنا على الأسلوب كان إحسان عبد القدوس هو المهيمن، فلما اشتعلت مشاعر صديقي، استعان بي، حتى إنه صنع لي معسكرًا في بيتهم، وزودني بالطعام والسجاير عند كل خطاب، إذ أن أباه صاحب محل البقالة ظل كنزًا لا يفنى، ولا تخضع له إمكاناتي المذهلة في ذبولها، لكن الخط الجميل، والمشاعر الدافقة، والأحاسيس الناعمة، كانت مصدرًا لأبدع سطورًا رقيقة على الورق السماوي الرقيق، والذي كان محمد عبد الحليم عبد الله هو المهيمن ذو السطوة، والقادر أن يقول إذا كان ثوبك وحيدًا فلا ينبغي أن يكون قذرًا، أتمنى أن أدفع عمري الآن كي أستعيد هذه الخطابات الغرامية المبكرة، والتي أدت دورًا إنسانيًا بالغ التأثير بين صديق عاشق لفتاة في المدينة، يراها كل صباح وسط زميلاتها في الطريق إلى المدرسة، ثم ينتظرها آخر كل نهار وسط زميلاتها عند الخروج من المدرسة، وكانت ترفع ياقة قميصها – أو بلوزتها – حتى تغطي جزءا من صفحة خدها أصابتها ببقعة احتراق صغيرة، لكنه لا يستطيع أن يلتقي بها.

سيكون مؤلما أن الأمر بين صـــديقي وحبيبتـــه قـــد أصابه اعتوار غير محسوب، إذ أن أباها نقل إلى العاصمة، المدينة العظيمة القادرة على منح فرص اللقاء للعشاق، فسافر حبيبها خلفها، والتقيا بالفعل، ولا أعرف ما الذي دار بينهمـــا على أرض الواقع بعد سنوات من سماوات الخطابات، فقـــد انقطعت هذه العلاقة لحظة تحققها، ربما كانت أجواء وأعماق ما حملته الخطابات لا يتطابق مع حبيب مغـــرم بالشخصـــية التي كان يمثلها سينمائيًا أحمد رمزي، مع أن صديقي هذا – وبتصميم غريب – عاد مندفعًا ليقـــرأ محمـــد عبـــد الحلـــيم عبد الله، وأزعم أن هذا الكاتب لا يزال موضوعنا المحبـــب في لقاءاتنا المتباعدة معا خلال الأربعين عاما الماضية.

***

لكني ظللت مفتوناً بعبد الحليم عبد الله، كان عـــالمي يتسع، والآفاق تنفتح عن أنواع أخرى من الكتابـــات الفنيـــة المتمردة، مع أن كثيرين كتبوا قبل إحســـان عبـــد القـــدوس ويوسف السباعي وعبد الحليم عبد الله، مكتبات الرصيف في العتبة والدراسة، وقصور الثقافة، ومكتبات الأصـــدقاء مـــن خلال ذلك عرفت يحيى حقي ويوسف إدريس ومحمد صدقي

وأبو المعاطي أبو النجا، وعايشته حين انقسمت الكتابات النقدية – سواء أكانت نقدًا أو استعراضا أو عرضًا لما يصدر – إلى قسمين رئيسيين. قسم يطوع ما يقرؤه لما يراه من نظرية نقدية حول الواقعية وما يترتب عن مزجها بالاشتراكية استجابة لما يرونه ضروريًا للمرحلة المهيمنة، وكان يوسف إدريس ونجيب محفوظ وعبد الرحمن الشرقاوي وإحسان عبد القدوس على رأس القائمة، وقسم يقابله، لم تتحقق فيه الواقعية الاشتراكية لكنه يحتل مناصب مؤثرة تستدعي الكتابة عنه – أو الدفاع عنه – مثل يوسف السباعي وفتحي غانم وإحسان عبد القدوس، ولاسيما أن كتابتهم تتضمن التمرد على ما كان لحساب ما هو كائن (ثم بدأت المسائل تأخذ وضعًا جديدًا حينما بدأ بعضهم – آخر الثورة – يتمردون على ما هو كائن لحساب ما هو مأمول – (فتحي غانم وإحسان عبد القدوس بالذات).

وبين هذين القسمين – أي في المسافة بينهما – وقع كثيرون ذوو قدرات إبداعية رائعة دون أن ينالوا حقهم في مجريات النقد، وفي التذكير الدائم بنماذجهم ومواقف أبطالهم

ذوي الأبعاد الفنية العالية، كان منهم: سعد مكـــاوي، وكـــان منهم محمد عبد الحليم عبد الله.

***

كنت قد نقلت إلى مجمع اللغة العربية فـــي مـــارس ١٩٧٠ من مشروع السد العالي، وهالني فور تسلمي للعمل – أن أكتشف من بين العاملين في المجمع اللغوي أبو المعاطي أبو النجا – والذي ظللت مفتوناً بروايته الأثيـــرة فـــي الأدب العربي المعاصر: العودة إلى المنفى، وكنت قد قرأتهـــا فـــي بغداد بالعراق، ومحمد عبد الحليم عبد الله، ذلك الذي ظللـــت مفتوناً به منذ أحقاب طويلة، والذي سوف يدهشك أن حســـه الأسلوبي الرقيق ظل مؤثرًا في افتتاح قصصي آنذاك (كـــان من الممكن أن أكون أكثر حذرًا أو أكثر خبثًا، أو أنام – ربما على ذراعي اليمنى وأترك نصف اليقظة لتسيل داخل عقلـــي المتناوم) مدخل قصتي (فصل مـــن قصـــة حـــب) وســـوف تلمحون أثر أسلوبه في تفكيـــر بطـــل (غصـــن الزيتـــون)، وتحركت من الفراش فألقيت الصبح مرتشعًا غير قادر علـــى التسرب من النافذة، (إنها النافذة الغربية)، ثم قال: الجو بارد، وقلت: الجو بارد، وقفت لأغلق النافذة فاختنق الهـــواء بـــين

مصراعيها، إن أثرًا أثيرًا وحثيثًا تعلق في فؤاد قلمي من هذا الكاتب الرقيق، والذي كنت أحفظ له مواقف أسلوبية لم أحفظها لأحد سواه: أحسست أنني إزاء شيئين يستحقان الرثاء والأسف: موقف زوجة أبي وفرار الزنبار، حين فوجئ الصبي الصغير بزوجة أبيه في أحضان قريبها في شجرة اللبلاب، ومنها أيضًا – حين تحقق حلمه بالالتقاء بحبيبته الصغيرة على سطح (شجرة اللبلاب): ورأيت بعد برهة مفاتيح الكنوز في يميني، لم يستعص علي باب، لا، ولم يزجرني حارس، لا تدع خيالك يجمح بك، فقد كنت نصف كريم، هذا الوصف لذلك الموقف لازمني فترات طويلة من عمري، وأزعم أنني قرأت بعض أعمال كثيرة من الأدباء، معظم ما كتب توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وطه حسين ويوسف إدريس ويحيى حقي، لكني قرأت كل أعمال محمد عبد الحليم عبد الله، أينما كنت وكيفما كنت، غصن الزيتون وسكون العاصفة والجنة العذراء والوشاح الأبيض والدموع الخرساء. وقصة لم تتم، وشمس الخريف والماضي لا يعود وأشياء للذكرى، أنني اعتصر الذاكرة، وأحاول أن أتذكر الآن هذا المقطع الذي نصبه خارج رواية غصن الزيتون:

يا إلهي لماذا تعذبنا بالحب مرتين: مرة لأننا أحببنا ومرة لأننا أحببنا من لا يحبوننا، أحس أن الدقة غير متوافرة في التذكر.

***

في مجمع اللغة العربية داهمني اضطراب، كان سهلا – ومن اليوم الأول – أن تتعرف على أبو المعاطي أبو النجا، غير أن محمد عبد الحليم عبد الله كان بمنأى عني، مع أن حجرة مكتبه الصغيرة جدًّا – والتي نقلت إليها مكتبي بعد ذلك بمدة – كانت أقرب إلى القاعة الواسعة التي كان فيها مكتبي المختلق بسرعة حتى يجدوا لي مكانًا يناسب وضعي الوظيفي الهزيل، فقد احتل القاعة المراقب العام وعدة مراقبين للمالية والإدارية والجلسات والمخازن – خمسة مكاتب غير مكتبي، كانوا يضمرون عدم الارتياح للأديب الغالي، وكان واضحًا أنهم لا يكترثون كثيرًا لفكرة الأدب، وكنت – في موعظة مرت بي خارج المجمع – قد انتبهت إلى أن جحافل المكتبيين ومكافحة طوائفهم يميلون – بالسليقة – إلى أن يكون ضحاياهم من المتميزين، لكني لم أتصور أن يكون ذلك في مجمع اللغة العربية الذي يرأسه الدكتور طه حسين، الذي صاغ لنا وسائل التفكير الراقي،

والتعبير الأرقى. ظللت مشتاقًا لحد الهوس لرؤية طه حسين، لكن ظروف صحته حالت دون حضوره للمجمــع. إلا مــرة بين أسبوع أو شهر. كان قد تجاوز الثمانين، يأتي بصــحبة السيدة زوجته في سيارة قديمة. وعند باب المجمــع – فــي شارع مراد بالجيزة – يكون العمال منتظرين حــول مقعــد جاهز، حيث يحملون الدكتور الرائد العظيم من السيارة إلــى المقعد، ثم يحملون المقعد على السلالم، كان المشهد معاكسًــا لما تمنيت أن أحتفظ به لطه حسين في صورته المثلى، وفي غرفته أي وراء مكتبه الواسع يظل الرجل النحيف الناشــف (هل تسمحون لي أن أقول: مجموع عظام مربوطة بالجلد؟؟) صامتا حين يدخل كبار موظفي المجمــع لتحيتــه، وكــانوا ينحنون على يده المعروقة دون تقبيل، وبجوار إذنــه كــان المراقب العام يهمس له باسم ووظيفة كل موظف يدخل لتقديم التحية، محمد عبد الحليم عبد الله لم يكن من هــؤلاء، كــان يرفض أن يكون ثمة وسيط بينه وبين طه حسين، فبعــد أن ينتهي كبار الموظفين من أداء طقس التحية، أو المثول، يأتي محمد عبد الحليم عبد الله من مكتبه ليحيي الدكتور الــرئيس، وكان يصافح طه حسين وصوته واضح السؤال عن صــحة

الدكتور الرئيس، لم يكن ينطق لفظة الباشا كغيره، وكان طه حسين يبتسم في وضوح، مغمغمًا بكلمات الشكر، وفـــي أول فرصة اختار طه حسين واحدًا آخر من العـــاملين ليصـــبح مديرًا عامًا للمجمع، مع أن درجات وأسباب استحقاق محمـــد عبد الحليم عبد الله كانت أكثر بروزًا، وهو ما أدى إلـــى أن يرفع دعوى قضائية غاضبة مطالبًا بحقه الـــذي أهـــدر، أن مساحة من الخبص واللمز والوشاية كانت تغلف هذه العلاقة، التي ساعدت على استشرائها صـــفاته المتصـــفة بالكبريـــاء الشديدة والتراحم الشديد، فقد كان محمد عبد الحليم عبـــد الله يضع كرامته على كتفيه وغير مسموح لأي أحد أن يقتـــرب من مجال نشاطها، طلبت من العامل – الفراش أو الســـاعي أفضل – أن يحضر لي فنجان قهوة، وبعد أكثر مـــن ســـاعة خرجت من مكتبي أسأل عن الساعي فوجدته نائمًا على مقعده في الصالة زجرت العامل بصوت عـــال، وكنـــت أعلـــم أن السعاة لا يسرعون في تلبية الطلبـــات إلا لـــذوي الســـطوة والوظائف الكبيرة، قلت للساعي أنه سيظل (فقريا ينـــام وراء الحوائط)، لكن محمد عبد الحليم عبد الله خرج مـــن مكتبـــه صارخًا لينبهني أن هذا العامل إنسان مثلي، ولا يحق لي أن

أشتمه أو أسبه مهما كان، لم يكن الموقـف يسـتحق ذلـك، ولم يكن هذا الأديب يعرف أنني أستبطن قصصـه وأحفـظ تعبيراته، وقد جذبني أبو المعاطي أبو النجا إلى مكتبة لكـي لا تتوسع دائرة اصطدامي بعبد الحليم عبد الله، ولاسـيما أن كبار الموظفين تعاطفوا معي كي تزداد الكويرثة استشـراء، وفي اليوم الثاني صحبني أبو المعاطي أبو النجا – بـالقوة – إلى مكتب عبد الحليم عبد الله، الذي كـان يتـدفق اندهاشًـا عاطفيًا في احتجاج أبوي كي لا أكون مثل غيري.

ولذا فقد زرته مرات قليلة – مع أن المكتـب جنـب المكتب، وتحفظت في إثارة ما أحمله له من حب، كنـت أود أن يكون أكثر مرونة – مع أني أقل مرونة منه بمراحل، وقد حاول كثيرون تقديمه قربانا لطه حسين فور رفـع دعـوى المطالبة بحقه في منصب المدير العام، كان أبـو المعـاطي أبو النجا يفهم الأمر لمعايشته لهذا الجو سنوات سابقة، لكني كنت أكثر وصـولا لـبعض التصـرفات الغامضـة ضـد عبد الحليم عبد الله لمعايشتي المحدودة لكبار الموظفين فـي موقع واحد، وحينما صدر الحكم لصـالحه، تـدخل مثيـرو

الوقيعة كي يحرزوا نصرا لصالح طه حسين، فأقاموا صلحًا جعلوا بموجبه محمد عبد الحليم عبد الله نائبًا للمدير العام.

وهو ما حدث لي شخصيًا بعد ذلك بخمسة وعشرين عامًا، حيث يحتاج الأمر إلى إفساح مجال جديد لمـــا يمكـــن لصاحب المنصب الإداري أن يحيقه بالمبدع الذي لا يجيـــد، ولا يريد، هذا الاستعباد وهذا التكالب ولـــو كـــان صـــاحب المنصب محسوبًا على الثقافة.

من الجلباب إلى مكاسبنا ... ومن الأدب
إلى الجوع والقلق في كل العصور

أود أن أشير – في صبر – إلى أن الرسائل التي تناولت حادثة الاستيلاء عنوة – وبغباء عنيد – على كتكوتي (زهر الفول)، سوف تستبعد من هذه الصفحات، حتى لا نساعد على زيادة شهرة فاعلها، لاسيما أن كتبه ورواياته العديدة لم تصنع له اسما ذا شأن في قائمة الأدب، حتى ابتسامته الصفراء ظلت مريضة تثير الزهق والملل من الدنيا، وبالتالي يصبح مناسبًا أن نخلي القلوب من المرارات، ونترك السفينة تتجه إلى جزيرة السندباد المتألقة، أو نساوم النسر – ربما هو العنقاء المستحيلة – كي يلقي بنا حيث المتعة التي لا نهاية لها.

جلباب الآخرين

● يقال إن جلبابك الذي تزهو بارتدائه ليس جلبابك.

سامية أبو الفضل

عباس العقاد – مدينة نصر

القماش المصنوعة منه جلابيبي (جمع جلباب) لم يعد يتعامل معه سواي، إنه أرخص قماش عرفته مصر منذ رحلة سيدنا عيسى مع السيدة والدته على حمارة يجري خلفها يوسف النجار، الذي كان يرتدي جلبابًا من ذات نوع قماش جلبابي، والذي ارتداه جميع فقراء مصر إلى ما قبل زهو الانفتاح بيومين، أنظر إلى اللوحات المعروضة حديثًا بالمتحف والخاصة بوجوه الفيوم، وعليك أن تنتبه إلى هذه الوجوه أو هذه الجلابيب.

مجال للتغيير

- ما الذي يدهشك الآن في هذا العالم؟

أحمد أبو سليم

إدفو – أسوان

عصفوران في قفص هدية لنا منذ سنوات اتضح لنا بعد فترة أنهما لا يبيضان، عقيمان، وظللنا غير قادرين على فحصهما (ربما يكونان ذكورًا)، أو إطلاق سراحهما، حتى طار أحدهما خلسة بسبب إهمال إغلاق باب القفص وكانت فرصة لتجاوز مرحلة العقم فأحضرنا عصفورين جديدين ليصبحا ثلاثة – نعم في قفص واحد، ومنذ ثلاث سنوات

أو أربع ننتظر أن يبيض أي عصفور منها، أي بعد هذا التغيير، دون جدوى، ودون أي فعل إيجابي، من أسرتي ذات الذكاء الخارق هل هناك ما يدهش أكثر وأعمق من ذلك؟

الأب عبد الصالحين

● ما الذي يخيفك ويوقفك عند حدودك ويلقنك الدرس المناسب.

عايدة عبد الصالحين رأفت

الفيوم

غريبة: الأب اسمه عبد الصالحين والجد الأكبر اسمه رأفت؟؟

أسرار

● ما الذي تتمناه، ولم يتحقق حتى الآن؟؟

سلوى الفحام

المنيا كلية الدراسات العربية

هذا سؤال بالغ الشر – فليس كل شيء يصلح للإفصاح، ابن بنتها – حفيدها – جاءني من أيام كي أتوسط له في دخول مدرسة فندقية.

قبض الريح

● ما الذي كسبته من الأدب؟

هاني أبو راس

دمنهور – البحيرة

أود أن استفسر منك: هل أنت من عائلة أبـــو راس النوبية، والتي كان يعمل واحد منها – هو صابر أبو راس – زميلا لنا أيام بناء السد العالي؟ أما عن مكسبي الحقيقي مـــن الأدب فقد ظهر واضحًا في حادث وقع لي في قطار الصعيد، إذ أن لجنة التفتيش على التذاكر كانت تضم اثنـــين: صـــاح أحدهما معلنا دهشته أن يكون الأستاذ مستجاب – الذي هـــو أنا – من ركاب القطار؟؟ واستغرب العضو الثاني الذي قـــام العضو الأول الصائح بتعريفه بي، تعريفاً مؤثرًا ومبالغا فيـــه يتجاوز تأثيره شهرة عادل إمام وأحمد زكي ومحمد حســـنين هيكل وأحمد رجب وتحية كاريوكا ويســـرا ويـــونس شـــلبي وتطور الأمر بسرعة حينما تناول التذكرة من يدي رافضًا أن أتكلف مليما واحدًا في قطار يتشرف أن أكون فيه، كان جميع ركاب عربة القطار قد توجهوا باهتمامهم نحوي، فأحسست – في اللحظة النادرة الساخنة القوية بمعنـــى أن تكـــون أديبًـــا،

وتراجعت إلى الخلف كل آلام العمــر وعذاباتــه وشــجونه وأحزانــه وأنــا أبتســم فــي تواضــع، ذلــك أن المفــتش – أو المحصل – المتعصب لي أشار لواحد من الركاب الذين يقفون بين فواصل العربات المكيفة – وهم عادة ممن فشــلوا في الحصول على تذكرة، وأعطاه تذكرتي كي يــدفع ثمنهــا دون أن يقع في الغرامات المشهورة التي يتحملها من لا يملك تذكرة، حاولت – مع كل ذلك – أن أثنيه عن ذلك، لكنه ظل – عالي الصوت – يصرخ أن الأستاذ مستجاب – الذي هــو أنا – أعلى وأعظم من أن أدفع مقابل ركوبي قطار الصعيد، وأنا الصعيدي الشهم الذي رفع رأس – لا مؤاخذة – الصعيد أستحق أن أركب قطارًا خاصًا ... وبمفردي ...!

لقد تمت هذه المسألة بسرعة مذهلة، وتناولت النقــود غير مصدق، والمفتش الآخر يضحك مستسلما، والفخر يغزو جوانحي التي أجهدتها عوامل الإرهــاق القــديم، وشــكرني الراكب مبتسمًا – وموافقًا، دون أن يفهم، بعدها غادرت هيئة التفتيش العربة، وبدأت أعيد ترتيب ما تناثر داخــل نفســي تمهيدًا للاسترخاء موجها عيوني نحو النافذة حتى نمت ...

بعد ساعات جاء المفتش، طلب مني التـــذكرة، كـــان واضحًا أنه لم يكن ضمن اللجنة المشار إليها، ظلت يـــده – المتشبثة بالقلم – متوجهة لي واليد الأخرى متشـــبثة بـــدفتر المخالفات، حاولت أن أشرح له ما حدث – وأنا أبتســـم فـــي حرج، وحاول من يجلس أمامي أو خلفـــي أو بجـــواري أن يشرح لكن الرجل قال في هدوء: التذكرة من فضلك ...

دفعت ثمن التذكرة – من جديد – إضافة إلى مبلـــغ الغرامة، مع مراعاة أن الشخص الذي حصل على تـــذكرتي اختفى، والمدهش أن إحساسي بالمجد الأدبي، اختفى أيضًـــا، وظللت مفتعلا الاسترخاء وعيوني تنظر من النافذة إلى كـــل الوطن، كي أشكره على هذا الذي كسبته مـــن الأدب ... يـــا هاني أبو راس ...

نسخة من الجمجمة

● بحثنا عن الرواية التي كتبت عنها وعن مؤلفهـــا إدريس علي (انفجار جمجمة) دون جدوى، فأين نجدها مع أننا بحثنا عنها فيما يصل إلى محافظة قنا من مطبوعات هيئة الكتاب والثقافة الجماهيرية، إننا في شوق لقراءة مثـــل هـــذه الرواية التي كتبت عنها بهذا الشكل المتعاطف بل والمتعصب

– بالطبع للنصوص الجيدة، وهو ما نعترف بأنـــه ســـاعدنا كثيرًا فيما تعرض له من أعمال أدبية في مختلف المجـــلات، كي نتعرف على أعمال أدباء قد لا نهتم بهم لولا تقديمك لهم.

أبو المجد أحمد مساعد مدرس

إسنا – قنا

صوتك – يا أبا المجد – عال وصارخ حـــول دوري في تقديم أعمال الزملاء، وقد قمت بالتخفيف من رســـالتك – وما فيها – كثيرًا، أما رواية إدريس علي – انفجار جمجمـــة – فهي صادرة عن المجلس الأعلى للثقافة، والذي يتبنى الآن إصدار أعمال لها طابعها المؤثر، واعتقد أن العمل كان نتاج فترة تفرغ حصل عليها المؤلف ثم قطعها وعاد إلى عملـــه، وأزعم أن مثل هذه المؤلفات – ذات الشأن – لا نجدها عنـــد باعة الصحف والمجلات، بل قد تكون في المكتبات المركزية في عواصم المحافظات، أكتـــب لـــي عـــن طريقـــة ســـهلة – أو مؤكدة – لتوصيل نسخة إليك، فعنوانك هذا لا يكفـــي، قبل ذلك أرجو أن تبحث في مكتبة قنا على هذه الرواية.

وآمل أن يتولى المسئولون التوسع في الإصـــدارات وهو ما لا تقوم به المكتبة الخاصة بهيئة خاصة.

العدو الأكبر

● بالتأكيد هناك أعداء يتربصون بك، فمن هم؟ وإن كنت شجاعًا عليك أن ترصد لنا أسماءهم واتجاهاتهم، مع ملاحظة أنك لم تعد شجاعًا كما تعودنا، وإلا فمن الذي يلف حولك وحول كتاباتك كي يقضي عليك قضاء مبرما.

عواطف يوسف واسيلي

جميلة أبو السعد

حامدة محمود عبد المؤمن

آملة السيد إبراهيم

زاكية السيد إبراهيم

السيوف – إسكندرية

الجوع ...

عميل سرى

● في ندوة – من أسابيع – بقصر ثقافة المنيا، قام (...) بالهجوم عليك متهما إياك بالوصولية، فما رأيك؟

أحمد عبد العال

ملوي

جميل أن يكون في العالم بعض المجندين المـــدربين لخدمتنا، وأعترف بأنني حاولت أن أتذكر شيئًا – أي شيء – عن المهاجم المذكور، دون جدوى ولذا فقد رفعت اسمه مـــن الرسالة، مع تأجيل الدفاع عن اتهامي بالوصولية إلى فرصة أخرى، لاحظ يا أحمد عبد العال أن هذا الشخص الغـــامض السرى له عليك فضل كبير، إنه وراء نشر اسمك هنا.

أين مكتبي؟؟

● ذهبت إليك في مكتبك بمجلـــة (المصـــور) ثـــم توجهت إلى مكتبك في جريدة "أخبار الأدب" فلم أجد لك أثرًا، فأين يكون مقر مكتبك؟؟ أم أنه مكتب وهمي؟؟

جميل عبد القادر الساوي

المحلة الكبرى

قد أكون مسئولا عن بعض ثقافتـــك، لكنـــي لســـت مسئولا – بالتأكيد – عما يناقض هذه الثقافة، وكنت أتصـــور أنك سوف تتوجه – باحثًا عن مكتبي – إلى جريدة "الأسبوع" ثم إلى مجلة "العربي" الكويتية، ثم إلى مصلحة الضـــرائب، أو الأحوال المدنية، أو إدارة الفيش والتشبيه، أو إلى اتحـــاد الكتاب، أو إلى الجزار الذي نتعامل معه – ومحل جزارتـــه

في مواجهة الكوبري الأول على ترعة الزمر – وهو يغلــق أبوابه يوم الاثنين، لكن عنواني الأكثر دقة وسهولة، والــذي يضم مكتبي، وهو ذلك الذي لا تصــدر منــه أيــة جرائــد أو مجلات، ويندر فيه الكلام عن الثقافة، إنه بيتي ...

خارج العصور

في كثير من قصصك نشعر أنك تستحضر عصــرًا مضى كي يتوافق مع العصر القائم، فما العصر الذي تحــس أنك تتواصل أكثر معه، وتتمنى أن تعيش فيه ...

رمزي عبد الشهيد

أهناسيا – بني سويف

السؤال مضطرب، لكني عجزت عن الهروب منــه، ورحلتي خلال كل العصور لا تدعو للزهــو أو الاطمئنــان، أكثر من أسبوعين مع هامان – وزيــر فرعــون مصــر – والذي كان عميلا للصهيونية، ثلاثة أيام في مضارب حــاتم الطائي منتظرًا أن يــذبح جــواده الوحيــد كرمًــا وحفــاوة بالضيوف، ولم أنتبه إلى أن حاتم الطائي لم يعد يملك جــوادًا بسبب الإسراف في الكرم، عدة قرون مع عمرو بن العاص في مصر، بعد أن عزله الخليفة العادل عمر، ثم بعد أن أعاده

الخليفة المترف عثمان بن عفان، وخمسة أيام مع أهل النوبة أثناء التهجير الثاني من بلادهم إلى مناطق جديدة أيام السد العالي – التهجير الأول كان أيام بناء خزان أسوان – ولم يقم به جمال عبد الناصر، ما يقرب من خمسين ألف قرن منذ هزيمتنا في يونيه ١٩٦٧ – ولا أزل أعيش فيها أربعة أيام مع امرأة بالغة الوسامة والجهل والجمال، والغباء في منطقة مقطوعة، خمس دقائق مع آدم وحواء قبل أن يقعا في مأزق المكيدة أو المؤامرة، التي أدت إلى طردهما من أجمل موقع عشت فيه طوال عمري، الجنة، دقائق مذهلة أخرى – متفرقة – بين جثث الفتح العثماني والصراع المملوكي والانتصار الكردي والزهو الفاطمي، ربع ساعة – عابرة – أيام الهكسوس، وهذا الربع ساعة المشار إليه يتملكني حتى أكاد أزعم أن أحمس الأول كان وهما ...

لاحظ أنني – يا أخ رمزي – لم أقترب من دقائق قليلة عشت فيها أيام دقلديانوس، هذا الذي طارد المصريين الذين آمنوا برسالة السيد المسيح في بواكيرها – أي قبل الإسلام – وأدى إلى انتشار ظاهرة الأديرة الكامنة بعيدًا في الصحراوات ...

أما اليوم فأنا أعيش في عصر مستجاب الرابع، هـل سمعت عنه؟ ولا أنا ...

وبعد

فهناك رسائل تجذبها الرغبة في السخرية فتخرج عن حدود السخرية، كما أن ثمة رسائل كئيبة وبالغة السوداوية تحول بيننا وبين التشابك أو التفاعل، لكني أرى رسالة من السيدة (ل. م. الجيزة) – ولا أعرف لماذا تختفي وراء الحروف دون أبراز اسمها، وهي تصارحني بأنها مدرسة، لكنها ترى أن الثقافة التي يتم تدريسها في المدارس لا علاقة لها بالثقافة السائدة – الثقافة الجادة المنشورة في الكتب والمجلات والمتخصصة في النقد الأدبي والشعر والقصة.

وهذه قضية مهيمنة على أذهان الكثيرين، حتى ولو كانت كلية جامعية قد اختارت نصوصًا معاصرة لزملاء الفترة الأدبية الحديثة، إذ أن ذلك يأتي بشكل إشاري دون أن يكون ذا وزن يتعادل مع الثقافات الماضية المهيمنة على العقلية التي تنظم مناهج التدريس أو البحث الأكاديمي.

وسوف أعود مرة أخرى لهذه الرسالة بشكل أكثر توضيحًا، لما فيها من أمور متعددة لا يمكن لنا – وبمفردنا –

أن نواجهها إلا بعد الاستقصاء الواجب لمقــررات ومنـــاهج مختلف سنوات التعليم – والعالي على وجــه الخصــوص، والذي قامت كثير من الجهود المخلصة فيــه بالتعامــل مــع النصوص الحديثة في الأدب، في رسائلها وبحوثها ومجالات اهتمامها، وهو أمر يحتاج إلى مدارسة وتعامل مختلف عــن الأفكار السائدة.

وإلى رسائل أخرى ... قل إن شاء الله

الغُلب ... لأصحابه

● ●قررت أن أتصرف مثل أخينا معوض الــذي ساب الغلب لأصحابه (واللي معاه غلب ينام به ويصحو به)، ونقطة تركيز الغلب والإرهاق والقلق – الخاص بي – هــي العاصمة الكبرى، المدينة الجميلة التي ظلت معشوقتنا التــي نهيم في أحيائها وأمواتها وشــواطئها وصــحاريها، لكنهــا خضعت هذه المدينة المعشوقة لتأثير (عمل) قام أحد القادرين المتخصصين في الأحجبة والتمائم بوضعه تحت أرضــيتها، لتنفث العوادم والزحام والضجيج والألفاظ النابية: في الجــو وعلى الأرض وبين سراديب المحلات والســوبر ماركــت وعلى خشبة المسرح ودور العلم، وتحــت أســتار الهمــس والنميمة والوشايات وأنواع عديدة من الفن العشوائي وهــو غير الفن التلقائي بالتأكيد.

ولأن معوض – الذي ساب الغلب لأصحابه – يرقد في الأعوام الأخيرة بين طيات جهازي العصبي (وجهــازك أيضًا يا صاحبي)، فقد قررت أن أرحل متوجها إلى أي مكان في القارة المصرية، العيال – عيالي – لم يعــودوا عيــالا، والحب لم يعد حبا، والأصدقاء غارقون في المهام الوطنيــة

الكبرى تمهيدًا لافتتاح معرض الكتاب، وكل واحد يسعى كي يجد الموقع المفضل في أركان الندوات واللقاءات، وأمي العزيزة تركتها في حماية أو حضانة أو رعاية أخي – في العاصمة الكبرى أيضًا، وهو – أخي – أصلح مني في القيام بالواجب إزاءها – لدرجة الاستشهاد، حيث يحتاز – نتيجة لذلك – أكبر مساحة في الفردوس بعد عمر طويل.

لكن زوجتي – رعاها الله عدة أحقاب أخرى – قررت أن ترافقني في الرحلة على أساس أنها ليست من الغلب المشار إليه، وأنني في حاجة ماسة إلى رعايتها، مع أنها تعلم – علم اليقين – أن فاسكودي جاما أو الإدريسي أو أحمد حسنين باشا أو ماجلان أو أمير جوفاسبوتشي – وجميع الرحالة العظماء والمكتشفين ذوي الشأن – لم يصحبوا زوجاتهم في رحلاتهم، حيث كانت رحلاتهم سوف تفقد الهدف الأصيل من أهدافها – ومن معناها أيضًا.

لكني – مثل أي شخص معاصر – لم أستطع إبراز رغبتي في الانفراد بالرحلة التي هدفها الأساسي أن أكون وحيدا، فإن لم تتحقق الوحدة: فليس مع زوجتي بأية حال، فاستسلمت في رصانة الأدباء الذين تشغلهم قضايا تزداد

سخونة بعيدًا عن الزوجات، ولاسيما أن ملامح زوجاتنا – في الأحقاب الأخيرة – بدأت تتشكل في ملامح الأمهات، وقررت أن أبدو سعيدًا، وأن أعتبر الأمور تسير في الاتجاه الصحيح، هذا الاتجاه الذي أدى بي – مع زوجتي – أن أغادر بيتنا في العاصمة صباحًا كي نصل إلى بيتنا في ديروط عند الظهيرة، لاحظ أني ظللت – رعاك الله – مبتسمًا.

كان الجو في ديروط – بلدنا – ساحرًا، الشمس الدافئة والآفاق الممتدة صافية دون عوادم وتلوث، ترعة الإبراهيمية تحت النافذة مباشرة تدغدغ الأحاسيس وتستثير عالم الطفولة المهجور – أو المحطم – أسفل طيات الرجولة المخنوقة بالمسئوليات، وإزاء طفولتي – أو صبيانيتي – المستثارة، ظللت أتجول – ظهيرة كل يوم – في أنحاء قريتي، محاولا الابتعاد – قدر الإمكان – عن التكوينات الجديدة المعاصرة فيها، والتي أخذت من المدن أسوأ ما فيها: أصوات الراديو أو المسجلات في كثير من مواقع التجمعات في الدكاكين والمقاهي والحواري – وأمام البيوت، أسبوع كامل أتجول مواجهًا بعض الصعاب التي يستحسن

ألا أحصرها هنا، والتي في قمتها أن فردة حذائي انفصلت إلى جزعين: النعل في ناحية والجلد في الناحية الأخرى، وكانت الصحف تتوالى حاملة أخبار تجهيزات معرض الكتاب، وكل واحد ألتقي به يسألني عن سبب عدم وجود اسمي بين جميع المدعوين من المفكرين والأدباء وقادة الرأي العام والقادرين على تحليل الظواهر والغوص في شئون الأمة، ليكشفوا عن براعة تفوق كثيرًا براعة أعضاء مجلس الشعب في الجدل حول كارثة حق "الخلع" الذي يبيح للمرأة مواقف جديدة ضد زوجها أو بيتها، لاحظ أني هنا شديد التعاطف مع الاتجاهات الرجعية جدا أو التقدمية جدا ... أيضًا.

ولأني لا أملك إجابة تشفي غليل جمهور أصدقائي في ديروط، مع عدم قدرتي على إبراز جنوحي – في الفترة الأخيرة – إلى الهواء الطلق دون أن يكون بيني وبين فاروق حسني أو جابر عصفور أو سمير سرحان أو حتى حسن سرور (المشرف على المقهى الثقافي) فقد شعرت برغبة جديدة في السفر من قريتي – أيضًا – وأسيب الغلب لأصحابه، حيث سافرت – ترافقني زوجتي الحبيبة – إلى

أسيوط – عاصمتنا الجليلة – بدعوة من مديرة ثقافة المنطقة نادية الشابوري، لنسعد بالاستمتاع سماعًا لفرقة الموسيقى العربية التي تكونت حديثًا هناك، وكانت – بالفعل – ليلة بالغة الجمال مفعمة بالألحان من مختلف أجيال الموسيقيين المصريين التي أداها عازفو الفرقة بقيادة حسن صالح المبتسم الودود.

وفي الصباح تجولت مع زوجتي في أسيوط، ثم توجهنا إلى جبل درنكة الذي يحتوي على أعمق بقعة في بلادنا وصلت إليها السيدة العذراء مريم مع ابنها عيسى المسيح برفقة يوسف النجار، والموقع يعبق بالإحساس المصري التاريخي الذي يحنو عليه جبل مريم، وكان الأب القسيس الذي رافقنا دائم الابتسام وهو يشرح لنا التضاريس الدقيقة للمكان، والذي تقع تحت أقدامه المنطقة التي قامت بتجديدها القوات المسلحة بعدما أصابها دمار السيول.

ثمة ارتباطات مع أصدقاء بأسيوط كان يجب أن نستريح في الفندق تمهيدًا للقاء ليلا، غير أن قلقا عارما بدأ يداهمني، فقررت العودة إلى بيتنا في ديروط، لم يكن ثمة سبب يدعوني لذلك، حتى رغبات أصدقائنا في القرية أن

نلتقي بهم بدأت تتراجع، مع أن الجو ظـــل بـــالغ الجمـــال، وجاءت أول مكالمة من ابنتي – سوسن – في العاصمة عن اضطراب الجو وصراخ الرياح الذي أدى إلى قذف قفــص العصافير من موقعة في الشرفة – بالدور الخامس – ليتحطم في الشارع ويصبح نهبا لمخالب القطط الضالة، ثم – وفــور أن أوغلنا في الليل – جاءت مكالمة أخرى من أخي، والــذي قامت بالرد عليه زوجتي، التي صرخت في اضطراب شديد الانزعاج، لتسقط سماعة التليفون منها، وكان الخبر المــؤلم: ماتت والدتي في العاصمة وبدأنا نعد العدة لاستقبال جنازتها طوال الليل، كي تصل إلينا في الصـــباح المفعــم بـــالحزن الغامر، دون أن نترك الغلب لأصحابه ... حيث لا صـــاحب للغلب سوانا.

نظرنا من جديد إلى:

هؤلاء الآباء ... وحكاياتهم التي تمزق القلوب

● ● عذرًا، لابد لي – هذه المرة – أن أرتدي لباس الواعظ، وأن أغامر بالدخول في عالم لا يتناسب معي، لكن الأمر – القائم – يدفعني إلى ذلك، ولاسيما أن ما بيننا – يسمح لي بالعوم في غير بحيرتي، والقفز من فوق أسوار قد تكون وهمية، فالآباء المعاصرون في محنة، والآباء تشمل الأمهات، وتشمل الأجداد، وكبار الإخوة والأخوات، الذي أرهقوا أنفسهم في تربيتنا، بل وأصابتهم تضحيات مروعة، لا نستطيع أن نقوم بها نحن إزاء عيالنا – كما قام بها أباؤنا وأخواتنا وأجدادنا.

والقرآن الكريم شديد الوضوح في هذا، في سورة الإسراء: **﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا﴾**

ثم يتابع القرآن الكريم التأكيد على هذا الواجب بصيغة الأمر الواضحة: **﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرًا﴾**، الحكماء

والفلاسفة والمصلحون وخبراء التربية – في كل العصور – يعملون لحساب الآباء ألف حساب، كما أن كل الأديان الأخرى، السماوية والأرضية، شديدة التصميم على ضرورة ألا تقل أف لهؤلاء الذين ضحوا في سبيلنا، أي ألا نتضجر منهم، ولا نشعرهم بمرارتنا إزاء سلوكهم أو تصرفاتهم، إنهم الآباء على كل المستويات: التوالد والتربية والرعاية ...دعوني أعتذر مرة أخرى للدخول في هذا الموضوع المرير.

في جريدة "الأخبار" – ١٢/ ٣/ ١٩٨٨ – تحت عنوان صغير ثم عنوان كبير:

جحود الأبناء – عم حسن طردته دار المسنين، وتخلى عنه أولاده الستة المتعلمون، أعوذ بالله، أي جحود أكثر صلافة، وإيذاء أكثر من ذلك والأنجال الستة المتعلمون ثلاثة ذكور وثلاث إناث، تزوجوا جميعًا، وهم موفقون وناجحون في حياتهم، وهذا الذي هم فيه من راحة وارتياح من أثر تربية هذا الأب – عم حسن – الذي صورته الجريدة رافعًا ذراعية أعلى مستوى وجهه في حالة استنجاد صارخ ومروع، يهد الحيل ويهدم كل العواطف، إنها ضد القيم

الدينية والأعراف والموروثات ومتون الأهـرام وحكايـات الأجداد: المسلمين والكفار.

وحكاية عم حسن – التي تقطع القلب – تتكرر فـي ذلك العصر المضطرب ذي الأنياب واللسان الطويل، في كل جماعة أسرية أو عائلة أو قبيلـة سـوف تجـد هـذا الأب – أو الأم، ولا عذر لأنجالهم في إيذاء هذا النوع من الآباء، عمتي نفيسة قضت آخر أنفاسها في حجرة كئيبـة منزويـة شديدة الرطوبة، مع أن عددًا وافرًا من خلفتهـا – ثمانيـة – ذكور وإناث، بنوا بيوتا واشتروا أرضا وزوجـوا أبنـاءهم، دون أن يقدموا الرعاية الكافية لأمهم، هذه التي كانت أختي – كلما زارت بيتي – تهمس لي عطوفـة وحانيـة أن أسـاعد عمتي، وهو ما يجعلني أحتد وأطلق الأحكام المريـرة علـى إنجابها العديد من الصنف القاسي ذي العواطـف المتجمـدة والحجرية أيضًا، واحد من أهل أبي رفض أبناؤه أن يـدخل بيتهم – وهو بيته أساسًا، وحتى حين مات مهملا في الخلاء، رفضوا أيضًا أن يتم تشييع الجنازة من البيت، صـديق لنـا استطاع أن يصبح صاحب دكتوراه في الآثار، إنسان جميـل هادئ الطبع، مغرم بالموسيقى والفنون الجميلة، ترك له أبوه

– ذو العلم والجاه – بيتا كبيـرًا، ووالـدة شـديدة العطـف والحنان، وما كاد يتزوج حتى اشتعلت نار الكراهية في هـذا المنزل الجميل، كان صديقي وزوجتـه – المتعلمـة – فـي ناحية، ووالدته الطيبة في المواجهة، وتدخل أبنـاء الحـلال فقرروا عزل الأم بعيدًا عن حياة الابن، وهو الابن الوحيد – مع تقرير مبلغ مالي يدفعه شهريا لها الابن، ومع ذلك ظلـت النار مشتعلة في البيت الكبير، حتى إن الوالدة الطيبة لجـأت إلى ابنة زوجها من زوجة أخرى – لتقيم عندها، رافضة أن تعود إلى بيتها ما دام فيه ابنها وزوجته، وقد رحلـت وتـم تشييع جنازتها من بيت بنت زوجها، وكان ذلك سـببًا فـي خلاف بيني وبين صديقي هذا أدى إلى قطيعـة لا تـزال – حتى اليوم – قائمة بيننا، كنت متعاطفًا مع الأم بالطبع، كمـا أني سوف أظل أتعاطف مع أي أم وأي أب، ولاسيما بعد أن أصبحت أبا مزمنًا، وجدًا جديدًا لأحفاد، أي لم أصبح مزمنًـا بعد.

الجرائد والمجلات مفعمة بأنواع من هذه الحـوادث والأفعال التي يشيب لها شعر الولدان ودون أن نشت بعيـدًا، نعود إلى نموذج الوعظ الأول: عم حسن، هذا الذي طردتـه

دار المسنين وتخلى عنه أولاده الستة المتعلمــون، ووقــف رافعًا يديه في بؤس بالغ يجعلنا جميعا نصلي من أجله كـــي تتحرق مثل هذه الذرية بالغة القسوة والانحطاط ...

في هذا الحادث عدة نقــاط نــود أن نضـــعها فـــي الاعتبار، الأولى أن هذا الرجل كان يدفع في دار المســـنين بين ١٥٠ و ١٨٠ جنيها، أي أنه ليس مــتطفلا أو محتاجًـــا أو مستغلا، كما أن الأمر وصل ببؤسه – ثانيا – أن ذهــب إلى ابنه المدرس في المدرسة – بجلباب وقبقاب – ليستعطفه لكن الابن القاسي نهره، ورده خائبًا، كما أنه – ثالثًا – قــام ابنه بنقل نفسه إلى مدرسة أخــرى مجهولــة – لا يعــرف طريقها هذا الأب المسكين.

فإذا أضفت – رابعًا – أن القلوب الستة (ثلاثة ذكور ثلاث إناث) أخذوا موقفًا موحدًا من هذا الأب، يصبح لزامًا علينا أن نواجه الموقف من زوايا أخرى – لا نحب مواجهة المواقف منها عادة ...

لقد تطورت الحياة – هأنذا أستمر في الموعظــة – تطورًا خطيرًا لم يتطور الكثيرون معها بالنسبة نفســها، إن الأب المصري – منذ نصف قرن – كان هو الأب الأكبــر،

يتسع بيته كلما اتسعت أرقام أنجابه، وكان مـــن الممكـــن أن تسب أو تجرح إحساس رجل لأنه لم ينجب، إنه – في عرف ذلك الوقت المتخلف – امرأة، ويمكنك أن تنال مـــن كرامـــة رجل لا ينجب سوى الإناث، علـــى نفـــس نهـــج العـــرف المتخلف، وكان الأب العظيم هو رب البيت والغيط، والأمـــر والنهي والإنعام والعقاب والذكور، وكل ولـــد يتـــزوج عـــن طريق والديه إرضاء ورضوانًا، وكل ولد يتزوج تختلق لـــه حجرة – أو غرفة – اختلاقًا لكي يظل كل الأولاد تحت مظلة أبيهم وأمهم، حيث يداوم الوالدان في الاستمتاع بمـــا يذيعـــه الآخرون عنهم من امتثال عيالهم لأوامرهم: عيالهم حتى ولو أصبحوا شبابًا منجبًا أو رجالا ذوي بأس، الأب القـــادم مـــن هذه المجالات، والذي تشبع جهازه العصبي بما كان يصـــدر من أوامر أبي زيد الهلالي لأولاد أختـــه يـــونس وأشـــقائه، يصعب عليه – أو يستحيل – عليه أن يدخل هذه الدار فـــلا يجد العيال تحت أمره، ويصعب عليـــه – أو يســـتحيل – أن يرى لأولاده حياة خاصة وأمزجة خاصة وعلاقات خاصـــة، كل شيء – معروف أو مجهول – لابـــد أن يضـــفي عليـــه الأبوان الرضا، بالقول أو الفعل أو الصمت، إنهـــم (عـــزوة)

أبيهم وأمهم وجدهم كذلك أنهم الذين يعتمدون سلوك ومسالك ومشارب كل الشعب القائم في حوزتهم.

لم ينتبه أحد أن الأب مخلوق يقع في ما يقع فيه بقية الخلق، من صفات أو أفعال، البخل والغيرة والجهل والسخف والطمع، بالإضافة إلى عوامل نفسية كثيرة: محسوسة أو معروفة، إن أم دكتور الآثار – صديقي القديم – لم تكن تستطيع أن – تتصور أن ابنها الوحيد، الذي ترك آثاره في حلمات أثدائها. وفي أعماق بطنها، وفي قرة عيونها، هذا الذي قامت من أجله مبكرة وحرمت نفسها من المأكل والمشرب حتى تطمئن على مأكله ومشربه، هذا الابن بالذات، ينام – آخر الأمر – مع أنثى ذات حلمات، وعمق عواطف، وقرة فؤاد، والأنثى الأخرى – تضع الأحمر والأخضر في خدودها، ورموشها، وترتدي من الملابس الفخيمة ما لم تقم بارتدائه الأم المكافحة ... مما يدفعها إلى التوتر الدائم، وافتعال ما يدعو للخلاف، وإشعال النيران في البيت الهادئ ... إنها تريد ابنها، طفلها، ولأنها تعلم أن طلبها مضحك وغير ذي موضوع فإنها تكابر حتى تحيل البيت إلى جهنم ... نحن جميعًا نتعاطف معها، ونقف ضد ابنها

وزوجته، ونكرر لهما دائمًا: لا تقل لهما أف، ونعـود إلـى بيوتنا، النار تظل ملتهبة تحت رماد الصمت، تشتعل في أول احتكاك ...

حينئذ يصبح مناسبا أن يقوم الوالدان بابتزاز الأنجال (والمثنى هنا يعني الأب بمفرده أو الأم بمفردها أيضًا) وتقوم الأم باللجوء للآخرين واستثارة عواطف الآخرين، والتنبيـه إلى الأخلاق المفقودة، والمبادئ الضائعة، الابن (كان واحـدًا أو أكثر) لا يملك إلا الهروب الغاضب بعد أن فشلت وسـائل الترضية، إن اللعبة القائمة الآن بين الآباء والأبنـاء ليسـت بعيدة عن المفهوم النظري للسلطة، والواقع الحقيقي المناقض لاستعمال السلطة، إن السلطة القبلية التي تهيمن على شعوب العالم الثالث ترتدي أزياء الدساتير والانتخابـات والمبـادئ والأسس الديمقراطية، لكنها – هذه السلطة العصرية – ترقد فوق المصطبة، وتنام داخل الخيمة، وتنادي على أتباعها من داخل الكهوف القديمة، وتمسك في يـدها النبـوت والعكـاز والسوط والأوامر والموروث من أدوات التهذيب ...

علينا الآن أن نعود لصياغة أكثر واقعية لحكاية عـم حسن، ذلك الأب الذي يشكو من القلوب الحجرية الكافرة التي

يحملها أبناؤه الستة، ثلاثة ذكور وثلاث إنـــاث، وزوجـــاتهم وأزواجهن بالطبع، مع إضافة هذا القلب الحجـــري الجامـــد الذي رفض العودة إلى إيوائه بدار المسنين، مما أدى به إلى أن يذهب إلى واحد من أبنائه المدرس بالمدرسة (بالجلبـــاب والقبقاب) فيقوم الابن بطرده مكسور الخـــاطر، ثـــم يهـــرب المدرس إلى مدرسة أخرى مجهولة لا يعرف طريقهـــا هـــذا الأب – يعني أن الأب عاد من جديد لمدرسة ابنه – بالجلباب والقبقاب ...

هذا الرجل الأب لا يطاق، ولا يتحمله أحد، والعذاب الذي يعانيه ناجم من كمية الأنانية غير المرئية التي تكتنـــف أعطاف الأبوة فيه، ودليلنا على ذلك أن الأنجال الستة اتفقوا بالطبع دون مباحثات – أو بعد مباحثات – ضد هـــذا الأب، قلوب الأنجال جميعًا تقع في عناء تعذيب الأب، وهو عنـــاء يفوق كثيرًا أي عناء آخر، ليس سهلا تحمله بـــالمرة، لكـــن الأب الذي يصعب معاشرته يظل محتميًا تحت هذه الصـــفة المقدسة (الأب)، وتنهال على الأبناء اللعنات، فإذا أضفت إلى وجهة النظر هذه أن دار المسنين رفضت عودته لتأويه بعـــد أن تحملته سنتين أي بعد أن سافر إلى أسوان للمشاركة فـــي

العزاء، يعني أنه – هذا الأب – يصعب معاشرته، وبالتـــالي يصعب إرضاءه، يؤكد ذلك أنه يدفع من ١٥٠ جنيهًا – إلـــى ١٨٠ جنيهًا شهريًا، أي أنه ليس فقيرًا معدومًا، لكن ما حدث منه خلال السنتين في دار المسنين لا يعرفه أحد، نســتنتجه فقط، وخصوصًا أنه هذا الذي يـــدفع هـــذا المبلـــغ فـــي دار المسنين – يتوجه إلى ابنه المدرس فـــي مدرســـته بجلبـــاب وقبقاب، مظهر شديد الإيذاء للابن ... المـــدرس ... وســـط زملائه، هذا الأذى الذي يقصده الأب في تعذيب ابنه عـــذابًا لا يتحمله بشر.

كل وقائع هذه الفظائع التي يرتكبها، الأبنـــاء ضـــد الآباء تحتاج إلى مراجعة، إن شروط الآباء فـــي المعاشـــرة والتآلف مع الأبناء ليس من السهل هضمها، الأمور تتغير من عصر إلى عصر، مفهوم الأبـــوة فـــي المنـــاطق البدويـــة أو القروية يجب أن تتطور إلى مفهوم أكثر رحابـــة، حتـــى تتسع عواطف الأبناء أيضًا كي تصبح دار الأمان للأبنـــاء، عدد كبير من أقاربنا وقع في هذا المـــأزق الخطيـــر، الـــذي تحولوا فيه إلى أبناء غليظي القلوب، تتملكهم الأنانية وليست لهم القدرة على إدراك العناء الذي عاناه الآباء في تـــربيتهم،

والأبناء. ياعيني – يدورون ويلفون، بين أفواه الناس وعذاب الضمير، وكتابات الجرائد التي لا ترحم، ولا تود أن تعــرف الشق الآخر غير المنظور من الكارثة والذي ترتــوي فيــه السلطة الأبوية بتعليمات الأديان والأنبياء والرسل والحكمــاء والفلاسفة، دون أن تتاح للأبناء فرصة واحدة أن يعلنــوا أن الآباء أيضًا مخلوقات عادية لها أنانيتها ومطالبها، وقــدرتها الفائقة على الخداع والتوريــة وتغطيــة الحقــائق اســتثارة للحقوق، وللمشاعر المغلوطة...

عذرًا، فقد انتهت الموعظة مع أن ما في الجعبة يملأ مجلدًا من أربعة أجزاء مع خمسة ملاحق من التذييل، بعدها يصبح الموضوع ملائما لكل أنواع السلطات الأبوية المهيمنة على مجتمعاتنا العصرية، أو على الأقل: ليصبح الموضــوع مناسبًا لي ... وحدي، بصفتي أرقب هذا التفاعل المــروع، والذي أشاع جوا قاتما حولنا دون أن يواجهه أحد إلا بمفهوم الآباء فقط، وهو أكبر أنواع الظلم التي نحيقها بأولادنــا ... فلذات أكبادنا ... كما لا بد أن نتذكر.

الجهل الجميل ... والأليم القاسي

● ● ظللت في السنوات الأخيرة أبحث عن بلادنــا: مصر، وجدتها متناثرة في القصص والقصائد وبحوث التربة وكتب المدارس وأناشيد التلاميذ وخطب الساسة وقادة الرأي ووخزات الرسوم الكاريكاتيرية وظــلال لوحــات أشــجار ضفاف النهر – مع أهمية انعكاس الضــوء الجميــل علــى أشرعة المراكب، ثم لم ألبث – فور وصولي إلــى مرحلــة أخرى من الذكاء العميق – أن تلمست رائحة مصر في قدحة الملوخية وبرام السمن ونبش الغربــان ومعامــل الكتاكيــت ومذابح المعابد والهياكل ونواقيس الكنائس وشــموخ مــآذن المساجد، بعدها – أي فور انقضاء أحقاب أخرى – استطاع ذكائي العصري أن يتسلق ظهور لجمال ويتسمع دبيب النمل وتناطح الكباش وإيقاع أواني الفخار وفتحات المناجم ومداخل السراديب ولوحات المتاحف ودقات الطبول وشــجن أوتــار الربابة بحثا عن الحبيب المهجور أو المأمول، وبعد كل هــذا الذكاء المتواتر: وجدت نفسي أغوص – أو أبحر – أو أطير في أجواء من الجهل المتألق الناعم كالفردوس أو النعيم.

ذلك أنني – ذات غباء ضاغط شديد الجمال والبهاء – انخرطت في صبيانية مدرسية وراء المواويل ونقوش واجهات بيوت الحجاج (طائرات وبواخر وبعض الخيول وتاريخ أداء الفريضة) ونصوص ندايات الجنائز (كلهن نساء دون رجال) ووشم الكفوف والأذرع والأكتاف ونصوص الأحجبة والتمائم وطقوس قطع الطريق على الضرر الجامح الذي يرتكبه الأعداء والحاقدون فينا نحن الأصفياء الخلصاء الأطهار، بحثا عن مصر العزيزة التي أشمخ بي وبأمجادي، كوسيلة ضرورية كي تشمخ بها وبأمجادها، دون التنازل عن مراقبة أشكال أزياء الجلابيب والقمصان وزركشة فراش المتعة أو المهد المخصص للأنجال حينما يكونون أطفالا، حتى يصلوا – رعاك الله – إلى مرحلة تكوينات فنون الأكفان والسرداقات، في ظل أساتذتي في فنون التراث الشعبي يشعلون في العقل نار المتعة التي تكشف الخلايا الناعمة والدقيقة في بدن الوطن الجميل.

غير أن الأمر – أمري أنا – بدأ يواجه متاعب أو قلاقل أو اضطرابًا يضع الأقواس حول ما اعتقدت أنه الإجابة الكاملة عن السؤال المصري والمصيري الذي يلهث

داخل جمجمتي الضيقة هل كل ذلك هو الإجابة التي تشبع رغبتي في معرفة الوطن؟ دعك من أن ذلك لا يشغل زملاء عديدين من أصحاب القامة الأدبية – الروائية بالذات، وأن ما يشغلني قد يدخل في مجالات الهوس أو الترف أو النزق أو التخريف الثقافي، ولاسيما أننا نزهو بأن رأسنا – بما فيها من أمخاخ وأعصاب – لا تزال موجهة إلى الغرب (دعك من العولمة الآن) وأن أجمل السهرات نقضيها – أو أجمل البحوث نكتبها – تكون عن أوربا وأمريكا: ما تنتجه وما يحتشد فيها من نظريات نقدية وجمالية دون أن نتخلى عن أمجادنا القديمة والحديثة ومواقع انتصاراتنا في جميع المجالات، ويمكن لك – من باب المعاصرة الوطنية – الاهتمام بضرورة أن تتألق السهرة أكثر لو استطعنا أن نريق عددًا من النكت حول الصعايدة تسمح لنا باللهو شديد المرح، نستدرك – آخر السهرة – لكي نعلن في صوت مطمئن (ولا يخلو من السخف) أن الصعايدة هم أحسن الناس وأعظم الكائنات أو الجماعات البشرية رجولة وشجاعة ومجدًا وكرما وحفاظًا على الأخلاق والتقاليد – والدم الخفيف أيضًا؟

والأمر المقلق – المشار إليه دون تحديد – هـو مـا واجهته ذات يوم سؤالا لنفسي: هل هذا – كله – هو وطنك؟؟ نعم هو كل ما أريده وبالتالي فقد قضيت حقبة مـن السـعادة بالغة الذكاء – أو ما يبدو أنه ذكاء ذلك أنني ذات ليلة طـرأ في بالي موضوع الغجـر، أي مـا الـذي أعرفـه أنـا – أو أصحابي – عن الغجر؟؟ وبدأت أبحث في مكتبتي، ثم في قوائم إصدارات بعض دور النشر ذات النفوذ الوطني، بعدها لجأت إلى الموسوعة العربية الميسرة (الغجر: شعب متجول تعداده أكثر من مليون نسمة منتشرون – وصحتها منتشرين – في جميع القارات، يحتمل أنهم انحدروا من أصل هنـدي شرقي، يتكلمون لغة هندية إيرانية تدعي رومني، ويتمسكون بعاداتهم وتقاليدهم الخاصة، ويعتمدون فـي معاشـهم علـى التجارة، ويتبعون دين الدولة التي يعيشون فيها، معظمهم من الكاثوليك أو الأرثوذكس لأن مراكزهم المجـر ورومانيـا) وانتهت جهود الموسوعة العربية عند هذا الحـد لأن المـادة التعريفية التالية كانت عن الغدارة: ذلـك السـلاح النـاري الصغير الذي فكرت – عدة مرات – أن أنهي بـه حيـاتي، دون أن أدرك أنني فتحت باب جهنم، وهل هـذا التعريـف

المبتور الناقص يصلح لشرائح الغجر في مصر؟؟ هؤلاء الذين تجد لهم أثرًا واضحًا في جميع أنواع أجزاء بلادنا يسرحون في القرى – قادمين من الصحراوات – ليبيعوا الحمص والحناء وأدوية سفوف البطن والكمون والشيح، ويراقصون القرود ويستعرضون قدراتهم في الوشم ودق الزركشة على جلود الأذرع والصدور وذقون الإناث وظلال أنوفهن، وهل الغجر السائمون السائحون حول منطقة الفيوم هم أنفسهم – وبنفس الصفات والمواصفات والطقوس والقدرات – الذين يتجولون في دروب ونجوع وتجمعات العدوة أو سمالوط أو إيتاي البارود أو ديروط أو أبو تيج أو قنا أو الأقصر أو أرمنت أو وادي النطرون أو نجع حمادي أو أسوان؟ وهل يتوقف تجوال الغجر عند ساحات ومتاهات الصحراء الغربية فقط أم أن منهم شرائح وجماعات في صحراوات السويس والغردقة وأبو عصون؟ أي في الصحراء الشرقية الممتدة من جنوب منطقة الصالحية شمالا حتى حدودنا مع السودان جنوبًا؟؟

وأين أجد معلومات عن كل ذلك وقد خلت رحلات اللواء الجوهري وأحمد باشا حسنين مما يفيدني أو يفيدك؟

فإذا كانت ثمة دراسات أو كتب عن الغجر في مصر – لم أتطرق كما ترى إلى البلاد العربية، سواء في الجامعات أو في دور النشر العام. فأين أجد معلومات دقيقة وضافية عن الشرائح الشعبية المصرية الأخرى مثل الغجر، إنني قرأت – من فترة طويلة – كتابا عن البشارية (وهم يعيشون في جنوب مصر شرقًا) في بحث جامعي لأستاذة لا أذكرها الآن، فهل صدرت كتب أو كتبت بحوث عن الحلب، أو النور، أو الفلايت (الذين في أساس شرائحهم أفلتوا من السجون أو من الاضطهاد أو من دورة الثأر فأقاموا مجتمعات بعيدًا عن أنظار الأعداء) وماذا عن جماعات النوبة وقبائل البدو والعبابدة سواء أكانوا في الصحاري أو في المناطق الزراعية، وماذا عن طقوسهم وعاداتهم وتقاليدهم ومصطلحات لغاتهم ومواويلهم وطرائق معيشتهم؟

وهو ما يؤدي بنا إلى سؤال واضح: لماذا لا يوجد معجم أو أطلس مصري (لم أقل عربي) عن تكوينات السكان والجماعات البشرية المتناثرة أو المتداخلة.

وهي المتباينة والمختلفة بالتأكيد عن عموم المعرفة القائمة عن خلايا بدن الوطن؟؟

وأين يتسنى لنا أن نعرف شيئا عن مصر، على الأقل
كي أوقف الإحساس الطاغي بأنني لم أصل بعد إلى أي
مرحلة ذات شأن من مراحل المعرفة الحقيقية؟
إنه الجهل، الخاص بي، والخاص بكم أيضًا ...

كل واحد معلق من عرقوبه

● ● والعرقوب نقطة التقاء كاهـل القـدم بكعبـه، وعليك أن تتحمل بعض التحمل – ما قد يحيط بالعرقوب من أمور، فمن الناحية اللغوية: عرقـب الحمـارة – أي قطـع عرقوبها، والتعرقب (أرجو ألا يصيب اللفظ خطأ في الجمـع المطبعي) هو سلوك العراقيب في الجبال: وتعرقب لخصمه: أخذه واحتال عليه في طريق خافية، وتعرقل عن الأمر: عدل عنه ورجع في كلامه، أما تعرقب. في معنى جديد آخـر – فهو يعني أنه ركب الحمارة من الخلف، ثم آخر الأمر فـإن التعرقب يعني إنه يشبه عرقوب في خلـف الوعـد، يقـال مواعيده مواعيد عرقوب.

علينا أن نتزود أكثر من المادة العرقوبية، فالعرقوب من الإنسان: وتر غليظ فوق عقبه يكون نقطة التقاء الكاهـل بالكعب، وفي الحمارة: ما يكون في مؤخرة رجلها، ويقـال: كل ذي أربع عرقوباه في رجليه وركبتاه في يديه، والعرقوب من الوادي: ما انحنى منه والتوى، أو الطريق الضـيق فـي الجبل، ومنه جاءت عراقيل الأمـور يقصـد فـي أسـاس عراقيبها.

لكن الأمر بالنسبة لي – ولك – هو ما تقوله أمهاتنـــا – في العادة – يكون ذبيحًـــا – وبطـــلا ثوريًـــا، أو شـــرقيًا أوسطيا، مع أن أخيل – أشهر من تم تعليقهم من عراقيبهم – كان إغريقيًا خالصًا. وتم تخليده في الإلياذة حيـــث اعتبـــره هوميروس (واضع الإلياذة) أشجع الإغريق الـــذين غـــزوا طروادة، وكانت نقطة ضعف أخينا أخيل في كعبه، وبالتحديد في عرقوبه، الذي انتهى أمره – بسببها إلى تعليقـــه منهـــا، والسر في ذلك غير معروف، أقصد: كيف يتسنى للواحد أن يكون معلقًا من مثل هذه الجزئية بالذات لا أعـــرف، حتـــى لو كان العرقوب ليس في القدم، بالنسبة لشمشون كـــان فـــي شعر رأسه هذا الذي حلقته له (دليلة) ليصبح بطـــلا هامـــد الحركة لا يصلح لأداء أية مهمة، وبالنسبة لخـــط الصـــعيد أو أبو هاشم الشهير (الذي من درنكة) كان عرقوبه الإغراق في حب أصدقائه دون حرص، وهو ما حدث أيضًـــا للنبـــي المسيح عيسى بن مريم حينما شاف العذاب على يد اليهـــود بعد أن قادهم إليه أخلص الأصدقاء، وكانـــت نهايـــة جمـــال عبد الناصر مشابهة لذلك حتى لو كان فـــي الأيـــام التاليـــة لرحيله، ثـــم إن عرقـــوب عـــدد مهـــول مـــن المعـــروفين

أو المشهورين كانوا معلقين منه: زعيم الهند غانـدي، ثـم راجيف غاندي، والملك عبد الله – جد الملك حسين، لا أقصد الذين تم اغتيالهم بإطلاق الرصاص، بل والذين تم اغتيـالهم دون إطلاق الرصاص بالمرة، يخضع لذلك عدد من معتقلي قضايا الرأي في العالم الثالث، والـذين يـتم تعلـيقهم فـي المعتقلات من العرقوب نفسه، وموتهم – كما ترى – قضاء وقدر لذلك: كنت – ولازلت شديد الاضطراب كلما سـمعت أمي تنبهني إلى أن كل واحد معلق من عرقوبه، منذ صغري وأمي تهرس النهايات الميلودرامية – بعضـها مضـحك – وتضعها – عرقوب رأسي، ثم تظل – حتى الآن – تصـمم على الإعلان المتوالي الدائم:

كل واحد معلق من عرقوبه، مع إني أصبحت جـدًا مثلها، ولي حقوق الأبناء والآباء والأجداد، في حـين أنهـا لا تحوز كل هذه الحقوق، كما أني عضـو اتحـاد الكتـاب، ونادي القصة، وأجيد القراءة والكتابة، وهو ما لـم يتـوافر لأمي، هذه التي حين هممت بوداعها في طريقي إلى بيتـي، حتى أعلنت في هدوء الأئمة والكهنة ورجال قطاع الأعمال: كل واحد معلق من عرقوبه.

اعتقدت – بسبب محدودية استعمال المخ – أن (كل واحد معلق من عرقوبه) تسري على عباد الله من البشر فقط، لكني بدأت انتبه إلى أن الجزار – بالذات – يعلق الجديان والخراف من عراقيبها فور ذبحها، وربما عند سلخها، الثيران والبقر والجواميس والجمال لا يحدث لها ذلك لأسباب ترتبط بوزنها، الذي يستوجب تقطيع عراقيبها التي لا تتواءم مع تعليقها – ثم إن الدواجن – في مذابح الدواجن – يتم تعليقها من عرقوبها – منتظمة في خط طويل من السلك – أثناء ذبحها، الحمير والبغال والخيول لا تقع تحت طائلة المعلقين من العرقوب بسبب افتراض موتها دون ذبح، أو لأنها تذبح في موقع لا يراه المستهلكون عادة، إن صائدا للثعالب في صحراء أسوان – الغرب – كان يقيم الفخ للثعلب بشكل ينتهي عنده الضحية معلقًا من عرقوبه، رأينا ذلك في السينما أيضًا في الغابات على وجه التحديد، إن الطريق الذي يسلكه الكائن، أي كائن، ويكون مولعًا بالمرور فيه، يكون دائمًا موضع الفخ، إنه يساهم بشكل واضح في تحديد نهايته – من العرقوب.

لكن الأمر بدأ يطفو بعيدًا عن مفاهيم أمـــي، وذلـــك أنني- وخلال السعي وراء العرقوب في الكتـــب والمعـــاجم والمذكرات وأقاويل السلف والخلف – فوجئت بما لم يكن في حسباننا جميعًا:

عرقوب: رجل من العمالقة يضرب به المثـــل فـــي خلف الوعد وكما قلت: مواعيده مواعيد عرقـــوب، حينئـــذ، وطفا في ذهني مباشرة المفهوم السياسي لخلـــف المواعيـــد والارتباطات المرتبطة بالسلوك الإســـرائيلي، وكـــان ذلـــك مفهومًا ساذجًا وتصورًا أبله، إن عرقوب الذي من العمالقـــة يحتاج إلى إمعان جديد، مع عـــدم اســـتبعاد إســـرائيل عـــن العرقوبية بالمرة.

فالعمالقة – الذين مـــنهم عرقـــوب- قـــدماء البـــدو الشماليين – مما يلي شبه جزيرة سيناء (الميســـرة) فتحـــوا مصر باسم الشاسو (البدو أو الرعـــاة) ويســـميهم اليونـــان (هكسوس)، وأصل لفظ العمالقة مجهول، والغالب أنه منحوت من اسم قبيلة كانت تقيم جهة مدينة العقبة – وربما شـــمالها، وكان البابليون يطلقون عليهم اسم ماليق أو مألوق، ثم أضيف إلى اللفظ ما يعني الشعب فأصبحت عمـــاليق – أي شـــعب

ماليق، وهو ما نطق به العرب عندما كان العرب ينطقــون، وعلم الأنثولوجيا الإسرائيلي يضـــعهم فـــي دائـــرة العـــداء للإسرائيليين – على أساس أنهم – الهكسوس. أو الرعـــاة أو العمالقة – نهبوا جماعات اليهود المتناثرة بين العرب في تلك البقاع، وذلك خلال هروبهم من مصر مدحورين على يد الملك أحمس الأول – القائد المصري الشجاع.

ولأن مواجهة مسألة الكيان الإسرائيلي – لوحـــده – منفصلا عن الآخرين الذين يغلقون الطرق على كل محاولـــة للإمساك بهذا الكيان من عرقوبه، يصبح لازما أن نبحث من جديد – لعل المعنى القديم يرتـــدي الثـــوب العصـــري فـــي الكوارث الراهنة، تلك التي يحدثها فينـــا هـــؤلاء العمـــاليق، أو العمالقة، الذين منهم عرقوب صاحب المواعيد المختلـــة، والذي لا يهمه أن تظل مواعيده مختلة، هو والذين صـــنعوه، فالعماليق كثيرون.

وبالتأكيد فإن مفرد العمالقة أو العمـــاليق: عمـــلاق، ويعني بالعملاق – طبيًا وتشريحيًا – الكائن السريع النمـــو، وفي الإنسان هو ذلك الذي يبلغ طوله مترين ونصف المتر، وكان أطول عملاق أمريكيًـــا ورد فـــي موســـوعة جينـــز

(٢٨١,٩ سم) – أي أقل من ثلاثة أمتار بشبر واحد، ومثل هذا يكون عرقوبه واضحًا يسهل الوصـــول إليـــه، مـــع أن الزيادة غير الطبيعية في النمو لا تصيب الهيكـــل العظمـــي فقط، إنها تنتشر في جميع أجهزة الجسم وأنسجته الرخـــوة، وينشأ النمو العملاقي من الزيادة في إفراز هرمـــون النمـــو بواسطة الفص الأمامي للغدة النخامية، وتحدث هذه الزيـــادة والشخص في طور النمو، وقبل التحام أطراف العظام، لكنها – إن تستمر في النمو وزيادة الإفراز بعد التحام العظـــام – فإن الشخص يصاب بمرض كبر وطول الأطراف، وتنمـــو أجزاء من الهيكل العظمي دون غيرها، مما يعرض الكـــائن لعدم الاتساق، فتتضخم عظام الوجه – وخاصة الفك العلوي والفك السفلي، وينحني العمود الفقري – ويضطر – العملاق – أن يجد موقعًا مناسبًا لتناول طعامه دون أن يســـخر منـــه أحد، وأن يلعب دون أن يقع في دائرة المهاترة، فلما يفشـــل العملاق في ذلك تراه لا يهتم بما يقوله الآخرون. ولا يراعي مصالح الآخرين، وتراه – حين ذاك – سخيفاً منحطاً ســـافل السلوك – يبحث عن الصغائر ليضعها في دائـــرة الكبـــائر، لا يكفيه منزله أو بيته فيظل يسعى كي يلهو أو يعبـــث فـــي

منازل الآخرين – يصنع المطارات والممرات لطائراته خارج مطارات وممرات أصحاب الموقع، ويحرك بوارجه المدرعة المسلحة الذرية والأيدروجينية كي تختال في البحار والمحيطات، يستولي على الوقود مقابل طبع أكبر عدد من صناديق الورق النقدي الذي يحمل اسمه – يوميًا – ثم ينهك أعصاب الآخرين بالتنديد والإنذارات دون مراعاة لمشاعر الخلق، يبحث عن التنظيمات – التي ترعى العدل – وتحاول أن تبدو عادلة – فيضعها في جيبه، هو عملاق – نعم، هو عرقوب أيضًا، وله عرقوب سوف تكون فيه نهايته، إنها العملقة ذاتها، عرقوبه الأصيل، فمرض النمو العملاقي يكون مصحوبًا بأعراض الاضطراب في كل أجهزته التي أنهكها التضخم. الطيران والبحرية وحرب النجوم والأقمار الصناعية والأجهزة التعويضية في التناسل والتواصل والكذب والمواعيد والخداع.

وقد حدث ذلك لعمالقة سابقين بشكل واضح محدد، ولأسباب انهيار واضطراب العمالق: الإمبراطورية الفرعونية التي جمعت أحشاءها من بين سهول بابل وصحراوات الشام، إمبراطورية بابل التي احترق جلدها

طول نهري الفرات ودجلة، إمبراطورية فـارس المشـدودة بحكمة زرادشت وهي – في آخر الأمر – تبحث عن موطن ميلادها عله يأويها من العواصف، والإمبراطورية الرومانية وهي – آخر الأمر – تبحـث عـن رداء يحمـي أثـداءها المترجرجة من أذى فرسان المسلمين، ثـم الإمبراطوريـات المتآكلة لأسباب نمـو العمـاليق نفسـها الإمبراطوريـات الأوروبية الوسيطة التي أنجبت عصور الاستعمار المتضخم المتحكم في كل القارات، لتقع الإمبراطورية الفرنسـية فـي آخر مأزقها: الأفريقية منسحبة لتبحث عن أمجاد الاسـتعمار القديم على ساحة الحريـة والمسـاواة والإخـاء، توازيهـا الإمبراطورية البريطانية – التي كانت أوامر حكامها تتـرجم إلى ثمان وعشرين لغة لأقوام تقع تحت حوافرها، فإذا بهـا تخرج – آخر الأمر – من حرب السويس تحاول أن تلملـم قميصها الممزق كي يستر البدن الضخم الذي تعـود علـى افتراش الأمم.

آخر العمالقة أيها السادة هو العرقـوب القـائم الآن، والذي جاء – أخيرًا – بعد نموه غير الطبيعي – كي يهـيمن على إرثه من أسلافه العماليق، الولايات المتحدة الأمريكيـة،

العرقوب المعاصر المتحلل من كل مواعيد، والذي في حاجة إلى مقادير كبيرة من مواد الطعام اللازمة لاستمرار أنسجته في النمو – ليظل قادرًا على الحياة، كميات رهيبة من الطعام يغذي بها جهازه العصبي والتنفسي والإعلامـــي، ويصـــلح لتحريك السفن والطائرات والبوارج والصواريخ والغواصات والجرائد والمجلات والأقمار الصناعية ومحطات الإرســـال، هذا العملاق، ذو العرقوب – تناول وجباته الدسمة – من قبل – في ألمانيا – ثم في اليابان، ثم في أمريكا الجنوبيـــة، ثـــم هاهو بعد أن وصلت مناسيب تضخمه إلى أقصى الحـــالات، جاء ليبحث عن غذائـــه فـــي أراضـــينا دون اهتمـــام بنـــا وبمشاعرنا، ويكفيه ما يكتبه ويرسله وما يفعله تنفيذا لرغبات إسرائيل، بصفتها واحدة من الغدد التي تغذي الجسد الأمريكي العملاق، ودون أن يهتم هذا المتضخم العرقوبي بما ورد في التاريخ من نهايات حتمية أصابت كل العماليق، تلـــك التـــي سوف تدفعه إلى أن يبحث له عن قمـــيص ضـــخم يغطـــي ما لا يصح ظهوره من تضاريس جسده الضخم، حينما تحل عليه النهايات، حيث يبحث الآن علم التاريخ عـــن عرقوبـــه تمهيدًا لأن يتم تعليقه منه – مهما كان جسده متضخمًا.

وكل واحد معلق من عرقوبه، وكانت أمي لحظتهـــا

تنظر إلى شاشة التليفزيون التي يجثم فيها الجسد الأمريكـــي

على كل الأخبار.

الفرج أيوب المصري الصابر... ورحمة هي المفتاح

<u>١ – أفيقي</u>

أفيقي. لست أول من ينام على الطريق، وأدهشني مدخل القصيدة فقررت أن أبارز الشعراء بها، كنت قد وقعت في حالة الإلهام حينما رأيت امرأة بائسة تكورت حول نفسها في ظل حائط قديم، أمعنت المرأة في وجهي ودفعت بابتسامتها المتعثرة كي تعلن عن سرور ضعيف اجتاحها – كان واضحًا أن عيونها – في سرور – تتابع حركة يدي، تلك التي لابد قد اخترقت جيب جلبابي كي أخرج – في سرور – ما أتصدق به عليها، لكن المرأة – حين رفعت عيونها عن يدي الخارجة توًا من الجلباب: ابتلعت سرورها – ذلك أنني – وبسرعة تساوي سرعة الإلهام – أخرجت من جيبي علبة السجائر، ثم اندفعت أصابعي إلى جيب الصديري بحثًا عن قلم أدون به هذا المدخل المذهل للقصيدة: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريق ... كانت خطواتي قد تعثرت أو اضطربت متوازية مع تعثر أو اضطراب اليد الباحثة عن القلم، إن كثيرا من القصائد – والقصص أيضًا – ضاعت وتبخرت لأن اصطيادنا لحظة الإلهام لم يكن موفقًا، كان

الوقت وقت الشعر وليس وقت الصدقة، عرجت جانبًا وبدأت ألوك المدخل الشعري من جديد: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريق، فالليل مسحوق ... وتوقفت عند "مسحوق" دون أن أنجح في العثور على القلم، مع إني أراعي مسألة أن أحمل القلم كلما ارتديت ملابسي تمهيدًا للخروج، بالعكس فإنني أيضًا أراعي دائمًا – أن يكون القلم قريبًا مني في المجالس والمشارب والمطاعم، في حركتي المنزلية، بجوار التليفزيون وبين شرائط الموسيقى وتحت وسادة النوم (الصحيح: على المائدة الصغيرة بجوار السرير)، كما أن القلم، والورق، عناصر أساسية في حقيبة السفر، أفيقي، لست أول من ينام على الطريق، وما العمل الآن لقد ضاع نصف البيت الذي تلى ذلك، والعيون المتوسلة للمرأة أصبحت عيوناً عاتبة، ثم عيوناً غاضبة، ثم – وأنا أبتعد أكثر لأعود فأنظر خلفي – عيوناً لاعنة واضحة الرفض لسلوكي غير المريح، وغير الإنساني أيضًا.

وصلت إلى البيت وقد سكنني إحساس بالذنب، وخلال اختراقي للشوارع ظلت المرأة التي ليست أول من ينام على الطريق ماثلة في أعصابي، قروش قليلة كانت كفيلة

بتحويل مثل هذه العيون العاتبة الغاضبة إلى عيون راضـــية، وهذه القروش بالتأكيد لا تؤثر في مجريات الأمور الثقافيـــة التي ترعاها بقلمك، وقلت لنفسي: معروف عنك الإســـراف في المأكل والمشرب وجلسات اللهو والمرح، مـــع إضـــافة الإفراط في مكافأة خدم المأكل والمشرب والمرح، لا يعلـــو عليك في ذلك سوى حاتم الطائي والدكتور شاكر عبد الحميد عد – الكلام لنفسي – عد يا ابن الناس وعالـــج – الجـــرح وامنح المرأة ما يعيد صياغة نظرتها، ربما لو فعلت ذلـــك – ارتاحت الأمور وعادت القصيدة للتألق والاستمرار، فالمدخل جميل، ومؤثر: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريـــق، كما أن مجرد المدخل – يعطي إيحاءات بمعان أخرى تخرج عن المعنى المدرسي: لست أول من ينام على الطريـــق ... أفيقي، قد يصل تعدد المعاني إلى إشارات للأمـــة العربيـــة، حينذاك اضطربت اضطرابًا شديدًا، فأنا شديد الحرص فـــي كتاباتي ألا استشرف المعاني التي تمس الأمة العربية، ذلـــك أن رؤساء التحرير، مع وكلائهم المسئولين عن الأبواب التي تهتم بكتاباتي وقصائدي، يحبون ما يكون حارقًا وله مســـاس بهذه الأمة المضطربة، بشـــرط واحـــد: أن يقـــرءوا ذلـــك،

ويتبادلوه في الجلسات، دون نشره، مالي أنا والأمة العربيـــة وقضيتي في أساسها مجرد إحساس إنساني بـــامرأة غلبانـــة أهمس لها: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريق؟

من فرط ما داهمني اشتريت عدة أقلام، ونوته تصلح للحفظ في جيوب الجلباب، كتبـــت مـــدخل القصـــيدة الـــذي أذهلني، وحاولت استعادة أي بيـــت دون جـــدوى، فقـــررت التحامل على نفسي وأن أعود كي أدفع للمرأة الغلبانة الملهمة التعويض المناسب لإثارة حمى القصيدة مرة أخـــرى، كـــان الجو هادئًا والدنيا صامتة وبعض النوافذ تأرجحت مفتوحـــة من أثر نسيم قديم (الريح أفضل – النسيم يحـــرك الملابـــس دون مصاريع النوافـــذ) وظلـــت الشـــمس ترقبنـــي دون أن تضايقني، ثم الشارع الأخير وأنا أهمس: أفيقي ... لست أول من ينام على الطريق؟ وبدأت أمزق في بيت الشعر لأحيلـــه إلى تفعيلات تصلح لجذب البيت التالي من عمق الإلهـــام – وبالفعل – وعلى وقع خطواتي – بدأت شباك الاصـــطياد – تسحب من التفعيلة بوادر البيت التالي: فالليل مسحوق، تناثر في الأفق الرشيق، أحسست بعدم الارتياح للأفق الرشيق الذي يتناثر عليه مسحوق الليل، على أية حال: القصيدة الحداثيـــة

تسمح بذلك، أفيقي، ربما انتهت المسائل في الشروق، يعني إيه انتهت المسائل في الشروق؟ القصيدة على بعضها تكون – في التحامها – ذات تأثير مخالف لتأثير التمزيق: أفيقي، لست أول من ينام على الطريق، فالليل مسحوق تناثر في الأفق الرشيق، وضعت خطا تحت (الرشيق) كي أعود فأعيد النظر فيها، وكانت أوراق النوتة قد تخاذلت تحت سطوة القلم، وإيقاعات خطواتي امتزجت بالتفعيلة الشعرية، واندفع الإلهام – وأنا أقف على الناصية – يرعش الجسد: إن كنت أنت الحائط الأبدي، أو الحزن المعربد في الشقوق فإنني – سيدتي – لست مثلك: لست آخر من ينام على الطريق ... هاهي القصيدة تخرج عن الحالة التي يحبها رؤساء التحرير دون نشرها، ولم يعد للأمة العربية أثر في معانيها أو إيحاءاتها، وتصبح القصيدة – بهذا المعيار – منافسة لشعر مدرسة نزار قباني التي تحتفظ بها تلميذات المدارس بين كراساتهن، وهو ما يعشق رؤساء التحرير نشره دون إحساس بالحرج.

لكن الأمر لم يكتمل، إذ أني – وخلال دبيب إيقاع الشعر في خطواتي وعلى لساني وفي قلمي وداخل أوراقي –

فوجئت بالمرأة المسكينة اللائذة بالحائط تمعن في وجهي متوجسة، ثم تقف – فجأة – بشكل واضح الاستعداد لمواجهتي، وبينما كنت قد اضطربت بين القلم والورق وجيب الجلباب، ويدي التي تحاول التخلص من كل ذلك – بنظام كي تلتقط القطعة النقدية المناسبة فأمنحها للمرأة، بينما أنا كذلك، صرخت المرأة في وجهي لتنبهني أنا ليست هي المرأة التي ألف وأدور حولها، وأنها سوف تظل متسولة طول عمرها دون أن تكون كما أريد (الصياغة الأخيرة مهذبة جدا لأنها أوردت ألفاظًا أخرى لا يطيق رؤساء التحرير سماعها: معظمها لحيوانات أقلها شأنا الكلب أو الحمار).

حينئذ، أصبح مناسبًا أن يخرج أفراد من الشوارع الجانبية، وأن يفهموا الموضوع كما تريده المرأة تمامًا، وظلت القصيدة في النوتة تثابر كي تخرج للدفاع عني، وعن موقفي، وأن الموضوع لم يكن كما تصورته المرأة بالمرة، أعوذ بالله. واندفعت مضطرب الخطوات ألملم نفسي بشعرها ونقودها هناك في شارع جانبي بعيدًا عما أثارته هذه المرأة، أعوذ بالله مرة أخرى، أفيقي، لست أول من ينام على

الطريق، وبدأت أهدأ، وأفكر، وأعيد التوصل للإلهـــام كـــي أكتب القصيدة تحت أي وقع، وداخل أي معنى، دون أن أهتم كثيرًا بما قد يربط بينها وبين تفعيلات الأمة العربيـــة، أو أي فرد فيها، هل هي رحمة زوجة أيوب المصري؟؟

٢- الصبر والمفتاح

وأشهر الصابرين كان أيوب، أحد أنبياء بني إسرائيل، ورد اسمه في القرآن الكريم أربع مرات وجاءت قصته مرتين (في سورة الأنبياء – وفي صورة ص)، كما اعتلى اسمه واحدًا من كتب العهد القديم، وتدور اختبارات صبر أيوب في أن الله امتحنه في ماله، وأهله، وبدنه، فصبر إلى أن وهبه الله العافية والمال والولد. ويذهب البعض أن ذلك حدث لأيوب تكفيرًا عن إثم ارتكبه، إثم فظيع وخطير. لا يمكن لأحد أن يستوعب حدوثه. أما أيوب – نفسه – فهو يؤكد أنه بريء وأن حكمة الله فوق إدراك كل إنسان، ويحمد الله على تعويضه عن هذا النوع من البلايا بالشفاء في آخر عمره.

بحثت في مكتبتي – عن أيوب المصري – الحكاية الشعبية دون جدوى، هذا الذي حدث له ما حدث للنبي أيوب، وقد حملته زوجته الأمينة الصابرة المخلصة فوق كتفيها، ودارت به في القرى والنجوع والكفور بحثًا عن علاج لمداواة هذه الكارثة المرعبة المؤلمة، كان جلده – كل جلده –

قد التهب محدثًا وجعًا ليس من قدرة البشر تحمله، ثم بـــدأت أوجاع الجلد الملتهب تدفع بالجلد إلى التساقط، مرض منتشر في بلادنا المصرية: التهاب الجلد، لكن أن تلتهب كل مساحة الجلد وتبدأ في التساقط الأليم، بما يعنيه ذلـــك مـــن تشـــويه مروع، فهذا هو النادر، وأعتقد أن مثل هذا المرض – فـــي أقسى حالاته –نوع من "البلاجرا" الناجمة عن نقص فيتـــامين (ب) المركب، وبالذات الذي تفتقد إليه حبوب الذرة الرفيعة، أو النيلية، أو الصيفية، هي الذرة التي كانت منتشرة في كـــل ربوع الفلاحين على طول بلادنا، وقد تقلصـــت زراعاتهـــا، فترة، ثم عات من جديد لتنتشر – في العشرين عامًا الأخيرة، بعد أن أصبحت غذاء أساسيًا لمـــزارع الـــدواجن والأبقـــار والجواميس.

أيوب المصري – وليس لي دخل في أيـــوب النبـــي الإسرائيلي – كان يعيش على المواويل والحكايات عند الناس في بلادنا، ينافس بدر البدور، والخشخبان، وحسن ونعيمـــة، وأدهم الشرقاوي، وقد أعاد صياغته الشعبية الفنـــان الكبيـــر زكريا الحجاوي لتشدو به خضرة محمد خضـــر – الفنانـــة الشعبية، التي لا يزال يظل صوتها علينـــا – بعـــد الحـــين

والحين– من الإذاعة أو التليفزيون، ولم أكن مشغولا بعلاقة أيوب المصري بأي أيوب آخر، ذلك أنني في السنوات الأخيرة فوجئت بواحد من معارفنا الأثرياء أي الذين لم يذوقوا الأذرة الصيفية في حياتهم – يموت بمرض أيوب، وبدأت الأقواس تلتف حول نبات الذرة الصيفية (أو الأذرة – واللفظان صحيحان) لتستبعد أن تكون هي السبب الأصلي الوحيد لمرض تقيح الجلد.

بعد ذلك أحسست بأن أيوب مصري خالص، حتى لو تشابه مرضه – البلاجرا – مع الأسقربوط: وهو من أمراض سوء تغذية خلايا الجسد، فتضعف جدران الشعيرات الدموية ويسهل حدوث نزيف دموي منها، كما تضعف – بعد ذلك خلايا الأسنان والعظام، فيختل تكوينهما ونموهما، لماذا لم يكن ما أصاب أيوب المصري مرض الأسقربوط؟ لأن هذا المرض هو الآفة المهلكة للبحارة في رحلاتهم الطويلة فوق ظهور السفن، البلاجرا هي ما يليق بنا.

ولكن الأسطورة الشعبية ظلت تحتوي على قدر مذهل من إمكانات اختراق عصور ما قبل التوراة والإنجيل وباقي الكتب المقدسة، والتي أشار إليها القرآن الكريم في

جلال معروف عنه إزاء الأنبياء الأمر – في أيوب الخاص بنا – أي المصري الخالص – الشعبي، إنه ليس من الأنبياء أو الرسل، وليست له القداسة، بل إنه من مصر، وإنه لمن المصريين حتى لو كان يعزو ما به وما أصابه إلى مكيدة الشيطان، والذي سمحت السماء له– للشيطان – أن يتجول في الأرض لكي يضايق أيوب المصري، ويجلب له كل أسباب التعاسة والحزن.

وفي الأحقاب الأخيرة بدأت أنتبه لأيوب المصري هذا، فأيقنت أنه اخترق أيضًا الوجود كله، بآلامه المبرحة المؤلمة الناجمة من التهاب حواسه ظاهرة في الجلد فقط، حيث أفاجأ به – بين الحين والحين – مضروبًا بالحذاء أمام أسرته من شرطي غبي، أو مسحوبًا من قفاه إلى قسم شرطة دون أن يعرف السبب (الذي قد يتحول بسرعة إلى الاشتباه أو الاعتداء على قوة الشرطة ذاتها)، بل وحينما يصبح أيوب المصري – ذاته – شرطيًا – فسوف يجد راقصة تقطع عليه طريق المرور وتسبه وتهينه حتى لو كان ضابطًا، ثم تستدعي بالمحمول – أو التليفون المحمول – زوجها أو صديقها أو الذي يسكن في الفيللا المقابلة ليتضح للشرطي

المهان أن القادم رتبة ذات شأن من الشرطة أيضًا، إن أيوب المصري وهو ينسحق انسحاقًا في الأتوبيســات والقطــارات وسيارات السرفيس ليزداد جلده تقيحًا. وهو الــذي تطــارده أغاني الهجس والضجيج وميكروفونــات التوســل والــدعاء المفتعل قبل آذان الفجر بساعتين، وهو الذي تحاصره نواتج الاحتكاكات من الحكومات العربية ليقضي الأيــام والليــالي مرعوبًا دون حماية في المطارات والمرافــئ يبحــث عــن الطريق للعودة إلى وطنــه – بأيــة طريقــة (!!!) وأيــوب المصري هو هذا الذي تحمله زوجته بين الأصقاع بحثًا عن علاج الخبراء لما هو فيه: حيث أشاعوا أنه لا يجيــد الإدارة أو التسويق أو الإدراك الدولي وبالتالي فإن بيــع مؤسســاته سوف يوقف التهابات الجلد المتقيح، كل ما يملك من مصانع قماش وسكك حديدية وقناة الســويس وطيــران ومحطــات كهرباء وخطوط مياه ومعامل سكر وروائح عطرية وخمور وسلخانات، ومدارس وجامعات وتجميع السيارات والثلاجات والبوتاجازات، كما أن أيوب المصري سيكون علاج جلــده مؤكدًا فور تخلصه من مؤسسات صناعة الأحذيــة والجلــود والحقائب، ومن الملاحظ أن التجارب الأولية في علاج أيوب

المصري نجحت نجاحًا ساحقًا ماحقًا: فقد بدأ يبعد عن زراعة القطن (محصوله الأثير)، أما محاصيل حبوب الحقـول فقـد اكتفى بما لا يحقق الناتج الأعلى تمهيدًا لأن يتخلص من كل المزروعات ذات الجهد المرهق، فاتسعت زراعات البرسـيم والنخيل والجزر الأصفر، ولذا فإن عددًا كبيـرًا مـن أولاد أيوب المصري بدأ يتوسع في زراعـة البـانجو والحشـيش والخشخاش، وظهرت في بيوت أيـوب المتعـددة معاملـه الخاصة لاستحضار الماكستون فورت وبـودرة الكوكـايين وأنواع أخرى ثمينة ومشعة من البودرة، كما أن عددًا لا بأس به من أصحاب هذا النشـاط نجحـوا فـي الوصـول إلـى المؤسسات الدستورية أعضاء في مجلس الشـعب والرقابـة والمراجعة، وهو ما أدى إلى ظهور رغبة شعبية عارمـة أن يصبح مخ أيوب مدممًا ومتقيحًا مثل جلده، حينئـذ ظهـرت العلاجات السريعة التي تقطع أنابيب التوصيل أو صـفحات الكتابة، إن فكرة الله أعلى من أن يتناولها مفكر، كما أن حياة الأنبياء يجب ألا يتم النظر إليها إلا من خلال وجهـة نظـر الذين قاموا بتقطيع الأنابيب وتحريم الأفكار المكتوبة، أيـوب المصري – أول من اختارته الآلهة أرضًا وموضوعًا لجلال

الله وعظمته ورسالته يجب أن ينتبه لما يلتـف حولــه فــي العصور الحديثة، كل الفحش والعهر متروك لأفلام الفيــديو: حيث متعة المشاهدة (الممارسة أفضل) فــي كــل القصــور المهيمنة في المنطقة، لا أحد قام بتحريم أفلام الفيــديو، مــع تحريم كل فكر واسع رحب يجادل ويناقش (مع أهمية التنبيه ألا يقتضي أحدهم هذه الفكرة ليكتبهــا فــي روايــة معتلــة وسقيمة) وهاهو جلد أيوب المصري بدأ يتماثل للشفاء، فبعــد أن تساقط ملتهبًا متعفنًا من آثار بلاجرا الأوضاع الخاطئــة، وبعد أن عرف الطريق إلى الصبر وتحمل البلاء، بدأ يشــكو من أنه في الحقيقة – يبحث عن المفتاح، مفتاح أيه يا راجــل أنت؟؟ نعم: مفتاح الفرج. وبدأ التاريخ يعيد صياغة ما يحدث لأيوب في ضوء المستجدات أو العولمة أو الجات، باعتبــار أن الصبر مفتاح الفرج.

وهو ما سنظل نفخر بالبحث عنه، مع تحياتنــا إلــى دورة جديدة للسيدة حرم أيوب المصري، ألــم تلحــظ أنهــا ازدادت قوة وقدرة على حمله فوق كتفها لتصــنع أســطورة جديدة؟ حيث تبدأ أبياتها الشعرية بهذا المقطع الرائع: أفيقي:

لست أول من ينام على الطريــق!! مــع أهميــة أن يكــون الشيطان وراء المسألة كلها؟؟

المجد لبحر يوسف

وعلى الذاكرة ... السلام

●● فور مواجهتي لبحر يوسف: أحسن بأنني اخترق عالمي الخاص، الشمس شمسي والقمر قمري وكل المياه تصب في القلب، يتعرج بحر يوسف خارجًا من جوف قناطر ديروط دون اهتمام بمراعاة الاستقامة التي تراعيها الترع الأخرى – المصنوعة، تحاصره الأسطورة التي أشرت إليها من قبل: حينما فسر سيدنا يوسف حلم عزيز مصر الخاص بالبقرات العجاف والسنابل الناشفة التي تداهم البقرات السمان والسنابل الخضر اليانعة، فتم الإفراج عن سيدنا يوسف (المسجون في قضية اتهامه الظالم بمراودة زوجة العزيز زليخة، الذي رأى أن مصر في حاجة إلى مشروع سنوات سبع منتجة لمواجهة سنوات سبع عجاف بائسة، وبناء على ذلك ركب سيدنا يوسف حصانه وظل هائمًا في البراري المصرية تفتيشاً عن الحل، لكن النعاس غلب سيدنا يوسف خلال تجواله فاسترخت عكازته ووصل سن ارتكازها إلى الأرض، مما صنع أثرًا من خط محفور في التربة يسير – متعرجًا – خلف العكازة المعلقة في

الحصان، هذا الخط الذي اندفعت فيه المياه ليصبح المجـــرى الذي يخرج مـــن ديـــروط ويصل إلـــــى بحيـــرة قـــارون بالفيوم.

الأجيال الجديدة في منطقة ديروط لا تعـــرف ذلـــك، ربما لأنها لا تهتم أصلا بالفولكلور وما قد يكـــون ممتصًـــا داخل خلايانا من خرافات وغيبيات، وحينما أقترب من هـــذا المجرى الأسطوري، في مبدئه عند ديروط، أو في منتهـــاه عند الفيوم، تبدأ الحكايات الجديدة والقديمة تتفاعـــل وتنشـــط وتطالب بحقها في السطوة على مجرى أمـــوري كمـــا هـــي مسيطرة على مجرى بحر يوسف من زمن قديم.

هذه المرة حاولت أن أكتم سراديب تفريخ الحكايات، أي أن أذهب إلى المنبت خاوي الوفاض، وأن أقضي إجـــازة – هناك – خالي الوفاض أيضًا، صـــحبت الأســـرة كلهـــا، وتركتهم – كما تعـــودت – يـــزورون الأقـــارب، يقضـــون الساعات أو اليوم كله بنهاره وليله فـــي دائـــرة المجـــاملات الطيبة، يصنعون ضجيج الانبهار القـــروي ويبـــالغون فـــي الاحتفاء المبالغ فيه لكل ما يأكلونه أو يشربونه هناك، كنـــت قادمًا من القاهرة بعد أن مللت القاهرة في الأسابيع الأخيرة،

وحاول أصدقائي في القرية إقامة مشهد ازدراء واحتقار لهذا الذي سرق ديكي: زهر الفول وصنع منها رواية، ثـم قـام بمحاولات صبيانية غير مهذبة كي يرجمني لكنني أغلقت هذا الباب لكي لا يصبح موضوعًا لمجاملتي، ثم كي لا يصـبح موضوعًا أستحضر له في ذاكرتي كاتبًا نادرًا مـا تذكرتـه عدوًا أو صديقًا، ولا يصح – من باب القانون الطبيعي – أن أحمله ما يقرب من مسافة ٤٠٠ كيلو متر في جوانحي حبًـا أو كراهية، ولمدة تصل إلى عشرة أيام لا دقيقة له فيها، حتى حين قرأت رسالته المنشورة في الجريدة الأدبية – في بـاب رسائل القراء – يتهمني فيها بـأنني وراء أمـراض وبلايـا الحياة الأدبية، وما يعنيه ذلك من أنه يفهم ويـدرك ويحلـل، حين قرأت ذلك، وكان غيري قـد قـرأه قبلـي، اسـتبعدت الموضوع كله – برمته (والرمة هنا تـتلامس مـع الجثـث المتعفنة) حتى لا أجيب عن السؤال المرهق: من هـو هـذا الكاتب؟؟ نعم: لقد جعلت عددًا كبيرًا من القـراء والمهتمـين بالأدب يعرف شيئًا عن هذا الكاتب الذي قام بهـذا التـدليس والاقتناص لكني غير مستعد للتعريف من جديد بالكاتب نفسه

الذي فشلت كتبه التي تجاوزت العشرة بتعريف النـــاس بـــه، زليخا زوجة عزيز مصر أفضل.

افتراس الفؤاد

ظهيرة الثالث – أو الرابع – كنت أتجول على شاطئ بحر يوسف من الناحية الشرقية، نادرًا ما يأتي شهر فبرايـــر – الذي يوازي أواخر شهر طوبة القبطي – بهذا الدفء، بل إن أشعة الشمس تكتنفها حرارة غير عادية لهذا النـــوع مـــن الأيام، وبدأت القاهرة تنزاح من الوجـــدان ســـاحبة ثقافتهـــا ووزارة ثقافتها إلى الخلف، حتى معرض الكتاب تراجع بكل ضجيجه، وهاهي جريدة "الدستور" قد نشـــرت أهـــم عشـــر روايات في تاريخ مصر، ففاز من العشرة ســـتة يرأســـون تحرير المناصب والدوريات الأدبية، ولو كانوا بعيدا لاكتنف الأمر تغيير مؤكد، إنني أعرف – جيدًا – أنهم خير الكتاب، إني لا أطعن فيهم، بل في البوصلة المؤثرة في ذاكرة غالبية الذين تم استفتاؤهم، قل لي: كيـــف يمكـــن اســـتبعاد (فســـاد الأمكنة) لصبري موسى، التي حازت على ترشيحات قليلـــة منهم؟؟ ولماذا سقطت من الترشيحات (يوميات نائـــب فـــي الأرياف) لتوفيق الحكيم – حتى ولو كانت للمؤلـــف نفســـه

رواية أخرى صعدت بها قدرات التذكر السريع حين نضع الحكيم والشرقاوي ونجيب محفوظ ويوسف إدريس كقاعدة تاريخية تبدأ بها سلسلة أهم الروايات دائمًا، دون إمعان في العمل نفسه؟؟

دعك من كل ذلك وانظر من بعيد إلى القرى في تكويناتها التلقائية التي تحمل آثار التفكير الجمعي الراسخ: مآذن المساجد، وقباب الأولياء – أو سرايات الأعيان، من الناحية الغربية لبحر يوسف، تقع القرى مباشرة على المجرى، كلها (عزب) أو ضياع – جمع ضيعة، أما في الشرق – حيث أتجول – فإن القرى تقع بعيدًا جدًا عن الشاطئ الذي يظل محتفظًا بكثير من تفاصيل قيامه من أشجار ونخيل.

الوقت ظل جميلا، وأسراب العيال على الشاطئ المواجه لا تزال متألقة بألوان الملابس الزاهية – من أثر احتفالات عيد رمضان، والبعد عن تجمعات القرى، ويتيح لك البعد عن صراخ الميكروفونات والمسجلات والتليفزيون والقطارات والسيارات في الوقت نفسه، والتكوينات البرية غير المشذبة تثير الخيال، كيف استطاعت العاصمة أن تدمر

أفئدتنا وعواطفنا لحساب الضغوط النفسية المروعــة التـــي تواكب التعامل مع كل هذه المؤسسات في البيــت والمكتــب والإتيليه والمقهى والمعرض والمتحــف وســواقي الأجــرة واندفاع عادم التلوث – مع كل هيصة الضجيج الخانق؟؟ متى يمكن لقرانا أن تألف رؤية أبنائها يسيرون عشا مع حبيباتهم على شواطئ هذا النهر؟؟ لماذا نقبــل ذلــك فــي الإذاعــة والتليفزيون والإعلانات والكتابة دون الحقيقة، لقد فشــلنا أن نصنع قصص حبنا وغرامنا خارج الجدران الثقيلــة الكابيــة المظلمة، فهل سيفشل كذلك أولادنا؟؟ في القاهرة أحب ابنـــي الأكبر زميلته ثم تزوج بها، هو – أصــلا – مــن ديــروط الشريف، وهي – أصلا – من شــلش، والقريتــان تقعــان متقاربتين في مركز ديروط، نظرت خلفي كي أرى (شلش)، وهاهي ديروط الشريف، ومع ذلك غير مسموح لهمــا بــأن يتجولا – مجرد التجول – هنا، لابد أن يظل العشق مــدفونًا في أعماق البيوت حيث يتمكن من إنتاج أكبــر كميــة مــن الرذائل، وهاهو الشاطئ يتعرج لهذا البحر اليوسفي الجميــل والنوارس، وأبو قردان والعصافير واليمام وأبــو فصــادة، والغربان أيضًا – تقترب وتبتعد وتثيــر الجلبــة الصــغيرة

المتألقة في الجو البريء الخاوي الخالي من الشـــرر، أيـــن أصدقاء القاهرة الآن ؟؟ السؤال مرة أخرى: أيـــن أصـــدقاء القرية الآن؟؟ المشغول في شراء الأرض الناجم عن إخـــلاء مستأجريها، والجالس في البيت الجديد يستمتع بالطقم المذهب والولد الناجح والتليفزيون ذي الثماني قنوات، مع أن كل مـــا نراه من قنوات التليفزيون في ديـــروط: الأولـــى والثانيـــة بوضوح وجمال، ثم السابعة – قناة المنطقة – التـــي يطغـــى عليها غبش وعدم نقاء، مع أننا نراها رائقة نقية في العاصمة – أي على مسافة ٣١٣ كيلو مترًا – وكأن الحكومة لا تهـــتم إلا بأهل العاصمة، بعد ذلك لن ترى أي قناة أخـــرى، لكـــن صديقنا عامر أبو الحاج يونس قادر على إقامة طبق استقبال ضخم على منزله الكائن في العزبة التي أراها واضحة على الشاطئ الآخر من بحر يوسف. ويفخر بأنه يرى مـــا يزيـــد على عشرين قناة، وله الحق في ذلك، لكنه سيظل واحدًا من قلائل يمكنه أن يرى ذلك، حتى أن ابنته – المتزوجة قريبًـــا منه – رأتني في إحدى القنوات الفضائية ضيفاً على المذيعة النشطة هالة سرحان، فأصبح ذلك الحدث المفتاح الأصـــلي لأي حوار مع النوع النادر، الكل مأخوذ مبهور مشدود إلـــى

التليفزيون وبحر يوسف يتلوى في المنطقة كلها يبحث عمن يرى ما فيه من جمال وفتنة ورواء، آه لو استطعت أن أتسكع في هذه المنطقة بصحبة واحدة من الفاتنات – سواء من العاصمة أو قريتي؟ كيف؟؟ ومن الذي يسمح لك بذلك حتى ولو طبقت شهرتك كل الآفاق، حتى لو ظهرت صورتك على كرتون النتائج المعلقة في الحوائط مثل نجوم الغناء والطرب والتمثيل والفتنة والإغراء، السؤال مرة ثالثة: هل يمكنك بمفردك أن تتجول في تلقائية دون أن تلتقي بمن يسألك دائمًا: يا عم رايح فين؟؟

كنت أفكر في ذلك وقد ظهرت مؤخرة قارب يتأرجح، اندست مقدمته في أعشاب الشاطئ وكانت زليخا – زوجة العزيز قد عادت تبتسم مشيرة إلى القارب.

٢- الرحلة الممتعة... جداً

لا يهم: سوف استخدم هذا القارب في رحلة لم يألفها هذا القارب نفسه من قبل، أو هكذا تبدو الأمور المألوفة، هل جمع هذا القارب – المتأرجح على مياه بحر يوسف – عاشقين من قبل؟؟ كنت قد جلست قليلا ثم قمت، الناس عادة في هذه المناطق يستخدمون القوارب في النقل أو الصيد، مع

أن العشق لا يقل أهمية عن النقل والصيد، نخلات وشجرات وقليل من الغيوم تتناثر في الأفق، حاولت أن أجـد طريقًـا للهبوط إلى القارب وفك وثاقه كي أسـتعمله فـي الفسـحة الجميلة، هل يمكنك الآن أن تجيد التجديف، لا أقصد التجديف بالمعنى الديني الفكري، بل بمعنى تحريك المجدافين بطريقة لائقة كي أتحكم في سير القارب وأشعر بالعذوبـة – واللـذة أيضًا، لو أني أملك القدرة على إصدار الأوامر لجعلت كـل هذه القرى نائمة في حقولها كي تتركني أستمتع وبينما كنـت أحاول اختيار فاتنة تصلح لمهمة العشق، سمعت صوتًا يكح، وتخرج الكحة من جوفه مخنوقة، نظرت حولي فوجدته قريبًا مني: كان نائمًا حينما أحس بوجودي، فاعتدل مـن نومتـه تاركًا نصف جسده مفرودًا ممتدًا على الأعشاب، ألقيت عليه السلام، كانت ملامحه معروفة لدي، اقتربت منه أكثر لكنـي فشلت في الوصول السريع إلى اسـمه، سـألته عـن حالـه فشكرني، قلت له إنني أريد أن أتفسح، نعم؟؟ أتفسح بالقارب، يعني أن أركب القارب في فسـحة. قـال ضـاحكًا: مثـل قوارب ... وأشار إلى بحري يعني العاصمة، قلت نعم، كان حواره معي يعني أنه محرج أن يسألني عن شخصي، وخلال

ذلك حاولت أن أصل إلى اسمه أو اسم عائلته مـــن ملامحـــه الواضحة، فألقيت له باسمي ليتلقفه فرحًا، لقد ســـمع عنـــي، وبعد أن أصبحت المسألة أقرب، وافقني – دون اقتناع بـــأن يصحبني في القارب للفسحة، مع اهتمامه بتأكيد أن القوارب لم تصنع أو لم تخلق للفسحة في بلادنا.

عندما ساعدني في النزول بـــين أعشـــاب الشـــاطئ الشرسة، كي أصل إلى القارب، كانت سعادتي، قد بدأت تثير في الجوانح لذة مفقودة من زمن طويل، وبعد أن هيـــأ لـــي القارب كي أدخله وأجلس دون معاناة أحسست بضـــرورة أن أمنحه نقودًا، فلنجعل هذا آخر الرحلة، فقد يتسبب الأمر فـــي اضطراب يودي بالرحلة كلها، ولذا فقد ازددت سعادة وأنـــا أجلس في صدر القارب، حينئذ أصبح القارب مهيأ للإبحار، حتى صوت مجدافيه بدأ أكثر شاعرية ولطفاً حين شكوت من الصوت العالي الناجم عن اصطدامها الشرس بالمياه، وكـــان بحر يوسف يبتسم ونحن نوغل على سطحه، كنت في حاجة إلى الصمت، وعندما رأى رفيق رحلتي – وقائد قاربي – أن يجاملني بإذكاء المديح لحياة العاصمة، ابتسمت له طالبًـــا أن ينسى ذلك الآن، كانت القاهرة – مستعدة في أية لحظة – أن

تداهمني بكل ما أكرهه فيها، فظل الرجل صامتًا لكنه أيضًا ظل مبتسمًا، وكنت أجول بعيوني، في التواءات الشاطئ البرية – لم أقل الوحشية، والصمت الرومانسي، مقطوع بأصوات تهب بين الحين والحين لعصافير أو طيور أخرى، أو نداءات تأتينا خفيفة من الشاطئ الغربي، كل شيء يمثل لوحة كبرى للوجود الجميل، قال الرجل – لا يزال يضحك مبتسمًا – هل تذكر ابن رزق؟ قبل أن أجيب، قال انظر ونظرت إلى حيث يشير، هناك عند النخلات، هذا غيط الشايبة (اسم الحوض أو المنطقة) وقبل أن أتذكر شيئًا عن غيط الشايبة كان ابن رزق أو عطية قد قفز في مركز الذاكرة، فقد خطفه أحد مجرمي الأشقياء، وطلب دية من أهله كي يعيده، وبعد أيام – أي بعد أن جمعوا الدية – أشار لهم وسطاء الإفراج، عن ابنهم الصبي إنه في حقل الشايبة تحت هذه النخلات. كنت صغيرًا أيامها لكن الكارثة لم تفارق ذاكرتي، وقد كتبتها هنا في "المصور" – من شهور؛ ذلك أن أهل الصبي، وجدوا بقاياه: عظام الذارعين وساقين وجمجمة، مربوطة في حبال، لقد افترسته الذئاب والحيوانات المفترسة في الحقول، قلت لمرافقي؟ في الحقيقة أنا غير مهيأ لذلك،

يبدو أنه لم يفهم، فظل معتذرًا في ابتسام واضح الجهل، مساء أي يوم – منذ جئت من أيام – أجلس مع أصدقائي فلا نتكلم إلا عن الطحلاوي محافظ أسيوط الذي يسعدهم أنه غير كل المحافظين الذين وفدوا على أسيوط من قبل، ثم يؤلمهم أن المحافظ حاول إعادة النظام لشوارع ودروب ومخابز ومطاعم ومجازر ومدارس ومستشفيات المنطقة، فإن لم نتكلم عن الباشا المحافظ فلابد من الكلام عن رئيس مجلس المدينة عبد الرحمن حافظ، أو مسلسلاته وأفلام التليفزيون والسينما، والسؤال الفج الدائم: هل قابلت الباشا المحافظ، هل قابلت العفريت الأحمر، هل رأيت ليلى علوي، هل تعرف أحمد زكي، هل أصدقاؤك كلهم من الممثلين والمغنيين، لا أحد يذكر الأدب وأصدقاء الكتابة، لا أحد يريد أن يغادر تلك المنطقة، لكن الرجل – الذي يرافقني في قاربه – لم يفعل ذلك. أحسن. وسوف نقفل الباب.

لكن الباب لم ينقفل، أشار لي صاحب القارب عن قمينة طوب بعيدة، هناك قريبًا من عصارة يوسف جاد الرب، مالها، هناك – وأشار: وجدوا جثة محمد علي غزلي مضروبة بالنار، لزمت الصمت فأحس بحرج، سألني

إنت زعلت؟؟ لم أرد، قال: هناك، نظرت حيث سور الـــدير المحرق، المكان بعيد جدًا وأراه بصعوبة، وقبـــل أن يـــتكلم أشرت له أن يصمت، ففي هذا المكان – وكنـــا صـــبيانا – عثرت – أنا وابن خالتي عـــوف – علـــى جثـــة صـــراف القمامصة المدممة المتورمة تحـــت شـــجر الساســـابان فـــي (مجراية المرج) الآسنة الراكدة، عندما أعلنت لمرافقي ذلـــك في احتداد وضيق، ظل ممعنا في وجهي وقد اكتساه استسلام، قال في بطء: لا، أنا لا أقصد ذلك، سمعنا مـــن أيـــام أنهـــم وجدوا في ظلال السور جثة صبية لم يعرفوا اســـمها ولـــم يعثروا على أهلها.

قلت له إنني – بالفعل أريد أن أتفسح في آفاق بلدتي، فقرر أن يلزم الصمت، لكن الجثث بدأت تتسلل إلى ذاكرتي، عائمة على الماء، أو محجوزة عند القناطر أو ممزقـــة فـــي حقول الأذرة والقصب، أو ملقاة عفنة بين أعشاب شـــواطئ الترع.

كانت أعشاب الشاطئ تحوطني، وتحاصرني، حينما طلبت من مرافقي – في حسم – أن يعود إلـــى البـــر، وقـــد تحول وجهي بعيدا عنه.

جولة ضرورية في مسائلنا المؤلمة

١- الوَحَسة

●● توقفت كثيرًا أمام (الوحسة)، وأمعنت أيضًا كثيرًا فيها، وبحثت عن أصل معناها في معاجم اللغة العربية دون جدوى، إذ أن لفظ (وحس) لا أثر له فيها، وبالتأكيد فإن كلمة (وحسة) لها أثر في اللغات التي داهمت اللسان المصري منذ هيروغليفية الفراعنة، والتي لا تزال لها بقايا لغوية تتقافز حية حتى الآن مثل خبز (البتاو) و(النشو) أي الغصن الرفيع من الشجرة، و(البشكور) أداة تحريك نيران الفرن، وهذه عثرت عليها في العربية أيضًا، وبعد الفرعونية المتعددة اللغات واللهجات كانت أيضًا لغات أخرى قد عبرت على اللسان المصري: الفارسية والرومانية والقبطية واليونانية والتركية والفرنسية والإنجليزية، ولم يستقر سوى اللغة العربية لارتباطها العضوي بالدين الإسلامي، وهناك بقايا اللغة القبطية في صلوات النصارى وفي مكتبات الأديرة والكنائس ثم النوبية بين أهل النوبة، ولا أعرف أية لغة من كل ذلك هي التي تحفل بالوحسة تلك التي كانت تصنع تقويما

لقريتنا، وتضع القصب – قصب السكر – مركـــزًا لـــدائرة الاهتمام بها.

كانت الوحسة هي الموقع الذي تقوم الجمـــال – ثـــم الشاحنات بعد ذلك – بتفريغ حمولتها من القصب – قصـــب السكر فيها، وهو الموقع نفسه الذي تقف عربـــات القطـــار المخصص لذلك بخطوط قضبانه، أي أن الوحسة هي مركز تجميع قصب السكر من الحقول، ونقله إلى شـــركة صـــناعة السكر، وهي هنا بالنسبة لبلدنا – ديروط – كانت أبو قرقاص – أو الفكرية، والتي تبعد عن بلدنا خمسة وأربعين كيلومترًا، أي طول القضبان من أفنية الشركة وأحواشـــها إلـــى آخـــر الخطوط حيث الوحسة المشار إليها، والتي – مع الأســـف – حاولت أن أجد هذا المسمى نفسه على ذات المواقع المشابهة في أدفو وكوم أمبو، كما أني لم أجد كلمـــة (الوحســـة) فـــي القواميس، أو في المناطق الجغرافية المشابهة، فأيقنت أنهـــا تخصنا نحن أهل ديروط – من الآن أو منذ القدم، وأنها جزء من تعريفاتنا المحلية الديروطية الخالصة.

كانت الوحسة تضم حول القضبان أرصفة للشـــحن، وعدة أكشاك يستعملها موظفو الشركة في حصر القطـــارات

وعد العربات وما إلى ذلك من شئون كتابية، ونادرا ما يحتاج القطار إلى وقود، لكن المخزن الجانبي كان يحتفظ بكمية من الفحم حتى تغيرت إلى قطارات الديزل، ويبدأ عمل الوحسة أواخر أكتوبر في إيقاع بطيء، ذلك أن القصب الذي يحتاج إلى تكسيره – أي جمعه – يكون قليلا في هذه الفترة، لكن الوحسة تصل إلى أوج نشاطها في يناير وفبراير – أي في عز الصقيع، وعندما كان نشاط الوحسة يبدأ – في الخريف، كانت أسراب الجمال (بدلا من قوافل الجمال) تتحرك من الحقول على الطرق الممتدة إلى مساحات القصب، لتصنع هذه الجمال مشهدا أثيرًا، تتفاعل حوله مواويل الصبر والتجلد والأمل في موسم مربح، وكان كل شيء في القرى الواقعة في زمام الوحسة ينشط ويتفتح، لابد من الإشارة إلى أن موسم جني القطن – آخر سبتمبر وأكتوبر كان أيضًا يتحمل مسئولية هذا الزهو الزاهي الذي يتألق في القرى، ولا يكاد موسم القطن ينتهي حتى تكون الوحسة قد نشطت أكثر ليشارك قصب السكر القطن في زهو مواعيد الزواج والوفاء بالديون وختان الصبيان. وكانت ديروط الشريف – بصفتها – أكبر قرى المنطقة – تبدأ (الليالي الكبيرة) بلية الاحتفال

بواليها القديم الشريف حصن الدين ثعلب الجعرى، وشـــيخها الأمير سنان، الأول من صدر الإسلام والثاني من العصـــر العثماني، ثم تبدأ فتحتفل مزهوة بالسيد البدوي – نعم الـــذي مقامه الأصلي في طنطا، والشيخ الفرغلي، الذي مثواه فـــي أبو تيج، ويكون موسم القطن قد انسحب ليظل موسم القصب يسعى في البرودة حتى يبدأ العام الميلادي الجديـــد، وتكـــون الترع وقنوات الري والجداول قد غاض ماؤها وبدا بطنهـــا كالمستنقعات، حيث يكون تنظيم الري قد أغلق كل القنـــاطر والسدود في السدة الشتوية التي نطلق عليها (سدة الأربعـــين) لاعتقادنا بأنها تستغرق أربعين يومًا.

وحين تبلغ أنشطة الوحسة أوجها، تكون كـــل قـــرى المنطقة مرتبطة – بشكل أو بآخر – بالوحســـة ... الجمالـــة والجمال، العيال التي تخطف أعواد القصب مـــن حمـــولات الجمال وتخفيها في ثنايا الزرع لتجمع آخـــر النهـــار كميـــة تصلح لتسويقها إلى البيوت التـــي لا قصـــب لهـــا، تجـــارة زعازيع القصب (قوالح) تلك التي كانت بعض الأسر القليلـــة تستخدمها في إنتاج نوع من الخمور اشتهرت باسم (العرقي)

كما أن مصاص القصب كان يجمع ليصبح وقودا لــه طاقــة عالية بسبب ما قد يكون عالقًا به من السكر.

أما في الوحسة نفسها، فقد كانت تنتظم – بقضبانها – خطوط المناطق التي تقف عليها عربات التحميل، وكان ذلك يمتص عددا هائلا من عمال التفريغ (من الجمال) والشــحن (في العربات) كما أن بعض العائلات كانت تتعمــد تشــغيل أفرادها في الحراسة والخفر، وهو أمر لم يكن ذا شأن إلا من باب التكسب من الشركة وابتزاز الفلاحين، وكانــت محطــة الوحسة هذه المنقسمة إلى محطتين: محطة مباحة لأي فــلاح عنده قصب، ومحطة أخــرى – فــي نهايــة الخطــوط – لا يستعملها سوى أحمد باشا قرشي، ولا يستعملها الفلاحــون أبدا مهما ضاقت بهم المساحة المخصصة لهم، وخلال الشحن والجر وحركة القطارات في مسارات خطوطها – وهي بعيدة عن خطوط ركاب قطارات الوجــه القبلــي وإن تقاطعــت أو توازت في بعض الأحيان – وكثرة الحركة والسعي وسط أكوام عيدان القصب، لابد أن يقع فلاح من فوق عربة قطار قد علاها القصب، أو يمر القطار على فلاح أودي به عمــق النوم فظل يتقلب حتى أصبح بين العجلات.

لكن كل ذلك – أيام الوحسة – من أعياد ومناسبات وحوادث قد تم تدميره بعد توقف زراعة قصب السكر في مساحات كثيرة، كما أن الفلاحين أخذوا يتراجعون عن زرع القطن لما يسببه لهم من إرهاق رعايته وتكاليف إنتاجه، ثم لم تلبث أن جاءت الفتاوى الدينية لتلغي الليالي الكبيرة التي كانت قريتنا تقيمها فرحة ومزهوة، فبدأت القرية تترهل وتتثاءب أمام التليفزيون.

وكان ذلك سببًا قويًا في إنجاب وإنتاج تلك الجماعات الإرهابية، إذ لم يعد الإحساس الطقسي الرابط للعمل والكفاح والكد بين الفلاح وموسم الإنتاج قائمًا، كما أن الأموال التي جاءت في طوفان القادمين من الخارج ساعدت على التهوين من شأن وقيمة الزراعة بما فيها من إجهاد.

وظهر جيل لا يحتاج إلى العمل وغير مجبر عليه، لكنه طاقة تتحرك دون (وحسة) تشغله بعرباتها وتحميلاتها ومراعاة ما فيها من عيدان قصب هي ناتج جهد مزمن، وبدون الحلاجات التي كانت تعمل على محصول القطن، فبأي وسيلة يمكن أن يصبح للفرد تقويمه النفسي الخالص الذي يربطه بحركة السنة ومرور الأيام؟؟

مازلت غير قادر على مبارحة نقطة الوحسة دون الوقوع في مصادرة الكتب حتى ولو كان الحكم الأخير قد رفع رأسنا، ومنح عقلنا فخرًا وزهوا، فالأمر أصبح أخطر من المصادرة ثم الحكم بالإفراج، إذ أننا نعيش في عصر يرعى (كله) المصادرة، أو الضبط، أو أيًا من تلك المداهمات التي تستخدم تعويقًا للأفكار الجادة والمحررة، وصدًّا لحركة العقل المعاصر نحو الجدل والمناقشة، والخنوع إلى ما هو قائم دون تمحيص وبحث وتحليل، إذ يستحيل علينا أن نملك القدرة على التخيل، وامتداد الخيال إلى آفاق أبعد مما يراه عموم الناس، ما دام هناك متربصون ومراقبون ومتشبثون بأنماط قديمة من الأفكار، ومن السلطة ومن السلوك أيضًا.

٢- تيسير الحياة

ولأني أسافر كثيرًا داخل بلادنا، هذا السفر الذي يكاد يكون نوعا من التسكع أو الصعلكة – بالمعنى الراقي لهذا النوع من السلوك، اتضح لي أن جهدًا كبيرًا نبذله للتعويق والحد من الحركة، ومحاصرة الخيال، وإضفاء المرارة على ما قد ننشده من راحة، وهي أمور أصبحت عادية مقبولة بعد أن سادت وهيمنت على حركتنا كلها، ويكاد من يتصدى لها

أن يقاومه الآخرون الذين – من المفروض – أن يحتمي بهم وبذوقهم، كنا في طريقنا – ليلا – من أسيوط إلــى ســاحل سليم، الجو منعش والرفقة طيبــة والســيارة تمــرق وســط الحقول، غير أن سائق السيارة ظل يمــارس هــذه الهوايــة الفجة: آلة التنبيه، عمال على بطال، نعم: هنــاك ســيارات أخرى نراها بين الحين والآخر قد تســتدعي التنبيــه، لكــن الإصرار على الاستخدام، المكثف والــدائم لهــذا الصــوت يدعونا للتوتر، طلبت منه – وكنــت جالســا بجــواره – أن يخفف من استخدام آلة التنبيه – وخصوصًا أن صوتها مزعج جدًا – فتوقف السائق متبرما ضيق الصدر عن ذلــك فتــرة بسيطة جدًا ثم عاد يرسل هذا الصوت بشكل أعلــى وأكثــر إقلاقًا، نبهته بصوت غاضب، وحين نظرت خلفي: وجــدت زملائي يبتسمون (في حرج) وكأني أطلب شيئًا يسبب هــذا الحرج، مع أننا ذاهبون لندوة ثقافية، أي نحتاج إلى نوع من الهدوء، بالإضافة إلى الجو القروي الذي لا يستدعي مثل هذا الضجيج، ولم أفلح، فاضطررت – فــي تــوتر – أن أبــرز غضبي، وهو ما يعني أن ما أنشده من هدوء ســلس ســعيًا وراء هدوء الأعصاب وروقان البال، قد انهار تمامًا. وقبــل

ذلك بأيام دخلت عربة القطار سعيًا وراء المقعـد الموضـح رقمه على التذكرة، فوجدته مشغولا، يا عـم: هـذا المقعـد محجوز، فأشار لي أن أجلس على أي مقعد فاض، قم أنـت يا سيدي – واجلس كما تحب، وبعد شد وجذب وتوتر، قـام السيد المشار إليه وترك لي المقعد، فهل تعتقد أنني جلسـت في المقعد واسترخيت تاركًا خيالي يسرح بحثا عـن فكـرة جديدة لقصة جديدة، وخذ عندك: المتسولون الذي تجـاوزوا التسول إلى الابتزاز، سائق التاكسي الذي – في كل مـرة – يكرمش وشه ويرفع الجنيهات إلى أعلى مستغربا: إنه يراها قليلة، صغار الضباط – في الصعيد بالذات الـذين يجلسـون بجوار السيارات المدرعة وقد وضع قدمه على مقعد آخـر، ليصبح عائقًا نفسيًا يتساوى مع عوائق المرور المزروعة في الطرق، الباعة الذين يتفنون في دس الفاسـد والقبـيح فيمـا تشتريه، أصحاب المكتبات الذين يعيدون تسعير الكتب فـي نهم، رئيسك في المكتب الذي لا يفهم ولا يريـد أن يسـلك سلوك من يود أن يفهم، الخبز الذي نشتريه غير صالح لأي غذاء آدمي ويسبب لنا كمدًا وإحساسًا بالمرارة، الملح الـذي يباع عيني عينك في الشوارع وهو ملوث لم يمـر بمراحـل

تنقيته، والذي يكاد يكون وراء كل أنواع أمـــراض الأمعـــاء والكلى والكبد، الأصوات الصاخبة المقلقة من المسجلات في السيارات والشوارع وشقق الجيران المفتوحة النوافذ، ثم هذه الأصوات المرعبة التي تندفع من مكبـــرات الصـــوت فـــي حفلات الزواج أو سرادقات العزاء، ثـــم إســـاءة اســـتخدام مكبرات الصوت في المساجد احتماء بأن أحـــدا لـــن يعلـــن اعتراضه على أصوات تذكر اسم الله والضراعة إليه، أثـــر الرصاص في الأيدي بعد قراءة الجرائد وما يتسبب فيه حين يتسلل إلى الجسد وبالذات الرئتين (لماذا لا يحدث ذلك مـــن الجرائد الأجنبية؟) العيال التي تقف بعد منتصف الليل علـــى النواصي – وبعضهم يسخر من العابرين – مع أن دوريـــات الشرطة تظل تطوف في المنطقة دون عمل جـــاد، وهنـــاك مجموعات العيال الذين يلعبون الكرة آخر الليل في شـــوارع لا تصلح إلا للعبور من كثرة تضخمها وازدحامها.

فإذا تركنا السيارات والقطارات والشوارع، فســـوف أحكي لك ما حدث في فندق (كذالوفا – هـــذا اســـمه) فـــي سوهاج، وواضح من المدخل وملابس عماله أن الفندق جميل ومريح، الحجرة المخصصة لـــي ضـــيقة، لا يهـــم، جهـــاز

التكييف لا يعمل، اتصلت بالتليفون فقام بتشغيل الجهاز من عنده، أي أنني لست حرًا في تشغيله من حجرتي، وبذلك أصبح غير قادر على التحكم فيه بما يناسبني لكنهم يرون في ذلك حكمة لمواجهة سوء استخدام الجهاز، لا يوجد أكواب مياه، ومثلنا في حاجة إلى مثل هذه الأدوات – وخصوصًا من يضطر إلى استعمال الفوار – علاج النقرس، واتصلت تليفونيًا فجاء العامل بكوب صغير من البلاستيك من النوع الذي تضعه المطاعم ذات الخدمة السريعة بجوار مبرد المياه بكميات كبيرة، فطلبت كوبا من الزجاج لأن ما يناسب الكافيتريا لا يتواءم مع الإقامة المريحة في فندق، فرفضت إدارة الفندق، أيضًا لأنها ترى في ذلك علاجًا لاستيلاء العملاء – على الأكواب أو تفاديًا لتحطيمها – بحسن نية أو بسوئها، صممت على الأكواب الزجاجية حتى جاءوا لي بها، ووقف العامل ينتظر انتهائي من استعمال الكوب حتى يعود بها ... !!

فأي تيسير للحياة يمكنك أن تجده في ذلك؟ وكيف يتسنى لفندق يتقاضى أجرًا عاليًا للإقامة أن يفكر بهذه الطريقة؟؟ فإذا عالجنا ذلك، فكيف نعالج عدم وجود مصباح

(أباجورة بجوار السرير – لقراءة الجرائد، أو للكتابة؟؟ أي كيف لمقيم في فندق مثل هذا أن يقوم إلى مفتاح النور في الحائط المقابل كي يطفئ النور؟ وأي كراهية يمكنها أن تستحوذ عليك إذا ما واجهت كل ذلك في فندق فخيم التكوينات، منخفض الإدراك لمعنى تيسير الإقامة لنزلائه، وبعد كل ذلك. أي جحيم يمكن أن تكون الإقامة فيه مهما انحنى عماله امتثالا بين يديك؟ وكيف ينتقل سلوك (العوام) المروع والمهلك في الشارع إلى فندق – فخيم – عمله الأصلي هو تيسير الراحة؟؟ أليس هذا يمهد لعقلك وسائل الخضوع حين مصادرة الفكر؟

بالتأكيد أصبح الجو العام والخاص – وأي جو حولنا تحت أي اسم – فاسدًا وصعبًا، وقاسيًا، كل شيء يصيبنا بالاكتئاب والانزواء، وهو ما يساعد على عدم المقاومة – قانونيًا وقضائيًا.

هذا الاتجاه لمصادرة أفكار الباحثين وخيالات المبدعين مما يزعزع رسوخ الانتماء لهذا الوطن، وخصوصًا أن كثيرا من بلاد العالم الثالث – التي كانت مصر عاملا أصيلا في حريتها، فاقت مصر في مناقشة

عصرية للموروث في العقيدة والإبداع والفكر، ودليلنا علـــى ذلك أن كتاب (رب الزمان) للدكتور سيد القمني والذي صدر هذا الحكم العظيم برفع المصادرة عنه، نشرت فصوله فـــي كثير من الدوريات العربية دون أن يواجه هناك هـــذا الـــذي يواجهه هنا.

وليس سرًا أن الأزمة التي داهمت – من فترة قريبة – كتب الدكتور نصر أبو زيد وأدت إلى مصادرة أفكاره مع الزج به في ردهات المحاكمات، ترتب عنها أن كثيـــرًا مـــن الدول – من العالم الأول الأوروبي، أو العالم الثالث في آسيا – قدمت له إضاءات واضحة كي يغادر مصر إليها، فاختار هولندا ليكون في بلد خارج المقارنة مع مصر، إن عددا من الدول المجاورة لنا – في الخليج العربي أو شـــمال أفريقيـــا أو وسط وجنوب آسيا كانت مهيأة لاســـتقبال هـــذا المفكـــر المصري، وهو – مع الأسف – ما حدث بشكل آخـــر فـــي عصور مختلفة من قبل، حيث يجد الأستاذ المصري والمفكر المصري، عونًا كبيرًا كلما وقع أحـــدهما فـــي مـــأزق مـــع السلطات المصرية – الدينية، أو الأميرية.

ولذلك فإن الأخطار التي تضغط على العقل المصري الآن، في الشارع أو في الكتابة – سوف تؤثر في إحساســنا الوطني، وفي غيرتنا على هذا الوطن، وفي المعني العميــق للوطن وهذا دون أن أضيف الموضوعات الأخرى التي مللنا الكتابة فيها: الفساد والارتشاء، والغلاء الســاحق، وانهيــار الذوق العام، والجليطة، والبلطجة، وأمور أخرى مريرة.

أنا ... والحكومة

●● اصطدمت بالحكومة مبكرًا، كانت أختي الكبرى تحملني على كتفها وتخترق الطرق وسط الحقول حتى تصل – في البكور المناسب إلى المستشفى الأميري، كانت الأمور منضبطة أيامها، حيث يخرج التومرجي من داخل المبنى المخصص للعيون ليقف على درجات السلالم الأسمنتية العريضة ممعناً في الجماهير، عيال وشيوخ ونساء، الكل ينظر بعيونه الرامدة الدامعة إلى هذا التومرجي، وقد وضعنا كفوفنا على العيون اتقاء الضوء، وكانت أختي قد أنزلتني من فوق كتفها فوقفت على الأرض باكيًا مشاكسًا، والتذكرة العريضة – بمساحة كراسة – في يدها، لم أكن تجاوزت الثالثة من عمري بأية حال، لكني – دون انتظار لتصديقك – لا زلت أتذكر – بوضوح – أمورًا حدثت قبل ذلك أيضًا، وبعد أن يشبع التومرجي من الإحساس الواثق بهيمنته على كل هؤلاء الواقفين في مستوى قدميه، يبدأ فيشير إلى واحد منا، لم نكن في طابور، بل مبعثرين

تحت درجات المبنى، وكان التـــومرجي – دائمًـــا يبـــدأ باختيار العواجيز: واحد واحدة، كل واحـــد – واحـــدة – يصعد الدرجات في إرهاق حتى يصل إلى التـــومرجي، هذا الذي يلقي نظرة سريعة إلى تذكرته العريضـــة، ثـــم يسمح له بالدخول إلى المبنى، كانت أختي – عندما يحل الدور – ترفعني فوق منتصفها، حيث يصبح عظم أعلى الفخذ مسندًا، وتصعد بي في قـــوة، وكثيـــرًا مـــا كـــان التومرجي يمد أصابعه إلى عيني اليمنى، وبحركة مدربة وخبيرة يفتح عيني كي يحس بأنه يمارس اختصاصـــات طبيب، ثم يزوم بصوت يصعب ترجمته إن كـــان هـــو الرضى أو الاحتجاج أو عدم الارتياح أكون أنا حينـــذاك قد صرخت لحد التشنج، سيخ من النار يخترق عينـــي – تلك التي يزداد انهمار دمعها، فيقرصني الرجل في خدي غاضبًا – نوع من الغضب الأبوي الذي أحس به، لكني لا أسكت، كنت قد كرهت هذا التومرجي كراهية العمى، لكن الواقعة الأكبر حين أدخل المبنى، فأجد – ولم أنـــس ذلك أبدًا – إناء معدنيًا مليئا بالقطن والشاش والزجاجات

بسوائلها ذات الألــوان المتعــددة: الأحمــر والأخضــر والأزرق بالذات: كان الطبيب – بعد أن جعــل أختــي تتشبث بجسدي كي لا أفرفط أو أهتز – يضع الشاش في الماء الساخن، ثم يعصره داخل فتحة عيوني، وبعده يعود فيغسل عيوني بقطعة أخرى من الشاش المشبعة بســائل أزرق أو أخضر، وكانت المسألة كلها لا تتعدى الــدقائق الثلاث، لكنها كانت جحيمًا، يظل يخترق دمــاغي حتــى بعد أن يتركني الطبيب لواحد من مساعديه كــي يــربط عيني بوسادة من القطن تلتف تحت ضاغط من الشاش.

يومًا بعد يوم، المشوار نفسه والتومرجي نفســه، والوقفة نفسها تحت درجات المبنى، ثم الصــعود إلــى المبنى بالقرصة الأولى في الخد، ثم تطهير عيني بالماء الساخن والسوائل الغامضة، ثم القطن والشــاش، حتــى فقدت عيني بصرها تمامًا.

غير أن أهلي لم يقتنعوا بأن بصر عيني اليمنى قد فقد، ذلك أن الحكومة لا تفهم في الطب، وآيــة ذلــك أن خالي – الذي كان أيامها معلمًــا بالمدرســة الأوليــة –

ويرتدي الجاكتة على الجلباب أسوة بالأفراد الذين أتيحت لهم فرصة الخروج على أزياء الفلاحين، خالي هذا – ذو الكلمة المسموعة في ربوع القرية – أمـــر زكـــي عبـــد الرحمن – أشهر تومرجي في قريتنا أن يأتي إلى بيتنـــا لعلاجه، كان الرجل مثابرًا صامتًا، نظيفًـــا أكثـــر ممـــا تتصور، بالقطارة يفتح عيني اليمنى – وأمي تحضـــنني كي لا أفسد الموقف، ويضع القطرات فيها، ثم إلى عيني اليسرى فيشبعها تقطيرًا، لا زلت أذكر عيون عمى زكي هذا، كانت عيونه مغلقة لا أثر لبصيص انفتـــاح فيهـــا، والنار تشتعل في عيوني، مع قليل من السباب احتجاجًـــا طفوليًا ضد أمي وعمي ذكي، ابن الكلب الأعمى، الـــذي كـــان يجمـــع حاجياتـــه ويمضـــي دون غضـــب أو رضى، حتى أصابه الملل – أو عدم حصـــوله علـــى الأجر، فبدأ يتوقف، مما أجبرني على التوقف – محمولاً فوق كتف أختي الكبرى – كي أتعامل مع الحكومة مرة أخرى.. لكن أبي قالها واضحة: الحمد لله على ما نحـــن فيه ولا داعي للذهاب للمستشفيات ذلك أن زكـــي عبـــد

الرحمن كان قد همس لأبي أنه لا أمل، وأن عيني اليمنى ضاعت، مع أن تكويناتها واضحة السلامة حيث لا أثـر لأن أكون أعور بما يعنيه هذا من تشويه أو تمزيق فـي العين، صهرنا الذي تزوج بأختي هذه كان كذلك: أعور، وبالغ الدمامة، لكن القيـاس – بـالطبع – والتقـدير لا يخضع للشكليات، وخصوصًا أن هذا التومرجي الصامت – زكي عبد الرحمن حدث له موقف جعله يعتزل الناس باكيًا: فقد كان ابنه الوحيد قد أصبح موظفًا في الحكومة، وعندما جاء ضيوف غرباء لزيارته – المنصب الوظيفي الأميري في شكل كاتب بوزارة الأشـغال – قـدم أبـاه لضيوفه على أنه "الخدام": وكاد أبوه يموت كمدًا، ومـن يومها توقف عمي زكي عبد الرحمن عن الكلام.

لكني بعد سنوات قليلة عدت صبيًا إلى المستشـفى نفسه لأعالج من البلهارسيا، كنت أتبول دمًا شائكًا مؤلمًا، وظللت أتلقى الحقن: توخذني في زراعي ثم توخذني في أعلى الورك، أذهب إلى المستشفى البعيد وقد افترشـت جلبابي بقع عديدة واضحة الصفرة الدامية، وفي السـنة

الأولى الابتدائية جاء عبد الرءوف فرجاني – من بــبلاو وكان حكيم الصحة المدرسية، وكنت أنا شــاطرًا جــدًا وترتيبي الأول، والدروس والعلوم التــي نتلقاهــا فــي المدارس الابتدائية – في تلك الأيام – تضـــارع أعلــى مستويات التعليم الآن وفور تحريكي بين يديه، بعــد أن حكيت له ما جرى من حقن البلهارسيا، أمر بأن العـــلاج سيكون حقنة معينة اشتريناها من صيدلية ناثان التي على ترعة السواحلية بسبعة قروش، وكان الصيدلي – أيامها – يقوم بعملية الحقن مجانًا، كانت الحقنة شديدة الإيــذاء في وركي الذي تورم بعد ذلك بعدة أيام، ينقطع التبــول الدموي نهائيًا.

لكن الحكومة جاءت مرة دون أن تكون في شــكل طبيب أو ناظر أو تومرجي، وقد قتل عبد العليم العمدة، كان رجل ضخمًا قويًا مشهورًا بالسطوة الفائقة على كل القرية، ومع أن القرية – عندما كانت تقتل أحد رجالها – تحتفظ باسم القتلة دون أن تتسرب الأسماء للحكومة، إلا أن قاتل عبد العليم العمدة ظل غامضًا لا يعرفه أحد حتى

الآن، ولقد تذكرت عملية القتل هذه في الأحقاب الأخيرة حين اغتيل الرئيس محمد أنور السادات، كان عبد العليم العمدة خارجًا من قصره يودع بعض ضـــيوفه كعادتـــه، والسلم الرخامي في قصره يؤدي إلـــى حديقـــة واســـعة مزهرة ومثمرة، والمسافة طويلة بين الباب الخـــارجي – وباب الحديقة – وباب القصر ذي الدرجات الرخاميـــة، كان الجو عليلاً والقوم مبسوطين على الآخـــر، وكانـــت بيوت المعاوضة – عائلة العمدة – تضاء بموتور إضاءة خاص بهم، وهو ما كان يفعلـــه أيضًـــا الأثريـــاء مـــن القمامصة، حيث لم يكن النور قـــد دخـــل القريـــة (أول إضاءة كهربائية للقرية أوائل الســـبعينات اســـتفادة مـــن كهرباء السعد العالي)، وفي هذه اللحظة انطلـــق عيـــار ناري ذو صوت ثقيل، يقال إنه بج بطن العمدة وأخـــرج أمعاءه، وفور الصراخ المبدئي، ثم انتشار الخبر، جاءت الحكومة، ممثلة في الهجانة، وهم عساكر سود الملامح، يتناقل الناس أخبارهم تحـــت لقـــب البرابـــرة، وكـــانوا يستخدمون بنادق غيـــر مألوفـــة ويمتطـــون الجمـــال،

ويتحدثون لهجة خاصة قريبة من لهجـة الفنـان علـي الكسار، ويعتدون بالضرب بالكرباج علـى أي مخلـوق يجدونه بالشارع، كانت الأحكام العرفية (الطوارئ) قـد أعلنت وسط قوم لا يدركون معنـى الأحكـام العرفيـة، العائد من الحقل أو الطاحون أو البندر، نساء كن يـزرن أقارب أو حلقات الزار، فقد تعودت قريتنا أن تدفن فـي مقابرها بين وقت وآخر جسمانًا مقتولاً دون أن يؤثر ذلك في سلوك أفرادها، إلا في حكاية مقتل عبد العليم العمدة، وظلت مطاردات البرابرة لأفراد كانوا في الشوارع ليلاً مدعاة للتهكم والتسلي وإثارة للسخرية، ثم هناك اصطدام البرابرة بهؤلاء الذين يقومون قبل الفجر بوقـت طويـل ليتوجهوا للمساجد، وفي رواية عبد الرحمن الشـرقاوي سوف تجد البرابرة – الهجانة – في آخر الأمر يصادقون الفلاحين، الكتابة شيء والواقع شيء، قريتنا – وفي عدة مواقع مختلفة – لم تصادق الهجانة أبدًا، لكنـي – حـين كنت أنام – كان واحد مـن الهجانـة يـداهم أحلامـي،

يضربني بالسوط أو يدفع الجمل كي يدوس على جسدي، ظللت مرعوبًا من الهجانة.

لكن الأمر اختلف بعد ذلك – في علاقتي بالحكومة – حينما شاركت في تضليلها، وذلك عندما قتل فانوس أمام بيت محمد عثمان، فقد قامت أسرة القاتل بتهريب البندقية إلى بيتنا الكامن خارج القرية، وقام أبي – وكنت معه – بلف البندقية بالقماش القديم، ولم أكن أعلم أن أبي له هذه الأفكار، ثم اخترق حقول الذرة بالبندقية حتى وصل إلى بقعة صغيرة بها ارتفاع يحول بينها وبين أن تغمر بالماء، وحفر حفرة عميقة بالفأس الصغيرة (الفواسة)، ودفن البندقية بكيسها في الحفرة، ثم غطاها بالتراب والأعشاب...

وجاءت الحكومة – بالفعل في مساء اليوم نفسه الذي قتل فانوس في صباحه، ضابط ورجال عديدون وعشرات حولهم من القرية يتفرجون ويدوسون على الأرض المزروعة دون مراعاة لزراعاتها، وقام الضابط ومعاونوه بتفتيش البيت، ثم فحصوا المناطق المجاورة

من الحقول، لكنهم لم يتعمقوا في غابات الذرة المروعة، وخرجوا أو عادوا إلى القرية، ومن الغريب أن الشـــاهد الوحيد على مقتل فانوس كان شيخ الخفراء – أيامهـــا – والذي قام بتغيير شهادته أمام المحكمة، وخـــرج القاتـــل براءة، وطالب أهله أبي بالبندقية، كانت شهور عديدة قد مضت، وتغيرت زراعة الذرة الصيفية إلى برسيم، ثـــم بوادر الفول، وعندما حفر أبي الربوة الصغيرة لإخـــراج البندقية من مكمنها، كنت سعيدًا لأننا ضـــللنا الحكومـــة طوال هذه الفترة، لتطلع البندقية بشكل لا علاقة لها فيـــه بأية بندقية على الإطلاق، كانت لفائف القماش القديم قـــد تأكلت تمامًا بفعل الرطوبة، ثم تآكلت أجزاء البندقية ذاتها خشبية كانت أو معدنية، ذلك أن أبي الذي اختار الربـــوة التي لا تصلها مياه الري، لم ينتبه إلى أن الحفر للعمـــق سوف يصل بالحفرة إلى المياه المتسربة، والتي – بالطبع – وجدت ضالتها في الامتصاص السريع للقماش، والذي بدوره شوه البندقية تشويهًا مروعًا، حتى أنها فقدت آليـــة

إغلاقها أو فتحها، فلما حاول أبي أن يفتحها عنوة، تفتت أجزاء كثيرة منها.

لكن أهل القتيل لم يقتنعوا بأن هذه (البتاعة) هي بندقيتهم، وطالبوا أبي بثمن البندقية التي رأوا أنه قد يكون قد تصرف فيها، وقد ترتب على ذلك ضيق وأسف واضطراب في منزلنا، لكن المطالبة فترت، ونسي الناس الموضوع كله.

ولم ألبث بعدها أن وجدت نفسي أطالب بسقوط الحكومة، كانت المظاهرات قد انفجرت في المدينة، وقامت المدرسة الثانوية بإخراج تلاميذ المدارس الأخرى كي يساهموا في الهتاف الوطني، كانت المظاهرات الأولى تؤيد الحكومة في موقفها حين ألغيت معاهدة ١٩٣٦، وبعد أن انتشرت أعمال الفدائيين في قناة السويس، بدأت مظاهر أخرى تنادي بسقوط الحكومة الإنجليزية التي ترأسها امرأة، وكان المقصود أن البلاد الإنجليزية لا الحكومة – تحكمه امرأة – هي الملكة إليزابث، ثم بدأت المظاهرات تهتف ضد الخونة

والمخاتنين، ثم كانت هناك مظاهرات ضد (حافظ عفيفي) الذي عين أيامها رئيسًا للديوان الملكي، بعــدها ظهــرت هتافات أخرى تنادي (إلى الجحيم يا عصر الفساد)، دون تحديد لعناصر الفساد: الملك أو الحكومة، وكان حــزب الوفد أيامها مكتسحًا الجمــاهير المصــرية حبًــا وولاءً وتصميمًا، وقاد عدلي طلبــة عليمــي (أيــن هــو الآن) مظاهرات مكثفة تطالب بتحرير الــوطن مــن الــداخل والخارج وجميع الجوانب، وفي آخر كل مظاهرة كنــت أعود إلى بيتنا معتدًا بمواقفي الوطنية، وكنت أرفض أن أتجاوب مع تعليمات الوالدين في قضاء المصالح، فهــل الذي يكافح الحكومة صباحًا يصلح في حــش البرســيم وتقديمه للبقرة آخر النهار؟؟

وازداد الأمر غلياناً حينما أتيحت لي فرصة قراءة ما حدث من بلدنا – ديروط – في ثــورة ١٩١٩، كــان عدد كبير، يتجاوز العشرين من أهلها قد أعدم أو ســجن في حوادث التعرض للباخرة الإنجليزيــة النيليــة فــي (شلش)، أو الحادث العظيم الذي شاركوا فيه أهل ديــر

مواس في مداهمة القطار الإنجليزي والذي كان يستقله قائد القوات الإنجليز (بوب)، وقد قتلوا عددًا كبيرًا من الإنجليز بمن فيهم (بوب) نفسه.

فلما عرفت ذلك بدأت أعلن – وأهتف – أن بلدًا مثل ديروط قامت بما لم يقم به شعب آخر في ثورة ١٩١٩، لن تركع أبدًا للمستعمر، لكن الحكومة داهمت المظاهرة بعدة خيول، وتفرقنا لنعود في اليوم التالي فنجد أن المدارس قد أغلقت..

دعك من محاولاتي المتعددة – بعد أن توقفت عن التعليم – كي أجد عملا حكوميًا، كانت عيني اليمنى – التي فقدتها جهلا – تحول بيني وبين النجاح في الكشف الطبي، وأعطيت الحكومة ظهري وسافرت إلى القاهرة واشتغلت عند بائع بطانة البدل، رجل عجوز وساخط دائمًا – ويعلن سخطه بألفاظ نابية، فتركته واشتغلت مساعد خطاط في أول شارع محمد علي، ثم عاملاً بمعامل تحميض أفلام سينمائية بالدقي، ثم هجرت القاهرة وهاجرت إلى أسوان بنصيحة من المقاول رجب

النبراوي (وأرجو أن يكون بخير)، حيث عملت كاتبًا عند أحد المحامين، بعدها اشتغلت في شركة المقاولون العرب في السد العالي.

كنت قد نسيت الحكومة تمامًا ولم أعد أتعامل معها في مظاهرات أو وظائف، وكل الذي كان يربطني بها القطار الذي يحملني كل فترة إلى ديروط أو إلى القاهرة في الإجازات، ويبدو أن ذلك أغضب الحكومة فقد اعتقلني ضابط مباحث اسمه محمد عبد الفتاح، وأعتقد أنه هو يرأس أمن مدينة الإسكندرية الآن، وهو نفسه الذي كتب عنه علي سالم مسرحية "عفاريت مصر الجديدة"، لم أكن منضمًا لحزب أو جماعة، ويبدو أنه كان يقوم بالتحصيل اليومي الذي يثبت نشاطه، وبينما كنت أحاول أو أفهم قاموا بترحيلي – مع بقية المشبوهين أو المتهمين – إلى موقع بعيد، عرفت فيما بعد أنه معتقل المحاريق في أول الواحات الخارجة وظللت هناك دون تحقيق من آخر نوفمبر ١٩٦٥ حتى آخر يناير ١٩٦٦ ثم تم ترحيلي إلى أسيوط، وأرسلوا إشارة إلى شيخ البلد إن

كان المشبوه – الذي هو أنا – معروفًا لديهم ليحضـــروا لاستلامي، فأفاد شيخ القرية – الشيخ محمد الشـــناوي – أنني غير معروف لديهم، وسوف يكون مؤلمًا أن تقـــوم الحكومة – حينئذ – بترحيلي (كعب داير) من بلد لبلـــد، لكني فوجئت في حوش السجن بواحد من قريتنا يتحـــرك في حرية، صرخت فيه، وكان اسمه غائبًا عـــن ذهنـــي، ولما انتبه لي تذكرت اسمه: يحيى البطران، كان يحيـــى يعمل صرافًا، وقد قام – بجهد سريع كي يطلقوا سراحي.

لما سافرت إلى البلد بعد ذلك وذهبت إلـــى شـــيخ البلد – الشيخ الشناوي – أعاتبه لأنه أنكر أنه يعرفنـــي، قال إن الإشارة جاءت محمد أحمد شحاته، ولـــيس فـــي قريتي من له هذا الاسم.

الأخطر من ذلك أنني ظللت أطـــرد ذكـــر هـــذا الاعتقال من دماغي، كي لا أظل مجـــرد كاتـــب عـــن ذكريات السجن فأقع في دائرته المرهقـــة الضـــيقة (وإن كان ذلك قد ظهر في بعض قصصي القصيرة)، ولاسيما وأنني لم أكن قد بدأت الكتابة بعد، غيـــر أن الحكومـــة

كانت لي بالمرصاد، فقد قمت في الفترة الأخيرة بامتلاك مسكن خارج القرية، وإذ بي أفاجأ بأن صاحب (الكشك) الذي يبيع السجاير والمثلجات، هو نفسه الأستاذ يحيى البطران، الذي أخرجني من المعتقل منذ ما يزيد على ثلاثين عامًا.

وهذا يعني أنني – خلال عمليات دخولي وخروجي من المسكن لابد أن أرى يحيى البطران، وأتذكر المعتقل، وأن أعطي ظهري للحكومة بعد ذلك كما أشاء.

إبليس ... ليلا

●● ظللت مهمومًا – في تلك الأيام – بسبب، أو من أجل – إبليس، كان سيدنا الشيخ محمد عثمـــان قـــد أمرنا أن ننظف روحنا من إبليس، كنت في الســـابعة أو التاسعة من عمري حينما جذبني الألفة – هذا الذي يحل محل سيدنا الشيخ وينفذ تعليماته ويجمع منا نحن تلاميـــذ الكتاب البلح والكشك والنقود، جذبني الألفة مـــن فتحـــة جلبابي فأيقنت أن الطامة الكبرى قد وقعت، مع أنـــي لا أعرف ما هي الطامة، وأن الفلكة سوف تعد لعقـــابي، أو لتعذيبي، والفلكة أيتها الأجيال الجديـــدة – أداة لتثبيـــت الأقدام في وضع النوم على الظهر لقبول الضرب المبرح بالزخمة، ومطلوب مني الآن أن أشرح الزخمة: قطعـــة من خشب أو خيزران بها لسان من الجلد القوي تستعمل في إحدى أكبر شعور بالألم ضربًا على الأقدام، الفلكـــة والزخمة وراء هروب الجماهير المصرية قبل ثورة ٢٣ يوليو من التعليم، إذ كانت الكتاتيب هي الميناء الشـــعبي الذي يستقبل العيال كي يتعلموا ألف باء، ثم آيات القرآن

الكريم، ثم بعدها استظهار حفظ القرآن الكريم بترتيب قصار الصور (جزء عم) صعودًا إلى صور الأجزاء التالية، والتي نادرًا ما تجاوز أحدنا صغارها في جزء عم، فقد كانت الفلكة والزخمة وشد الأذن قرصًا والضرب بالعصا فوق ظهر الكتف (وهي من أقصى أنواع التعذيب) تحول بيننا وبين الاستمرار في حفظ القرآن، كانت تلقي بنا فلاحين في الحقول والمهن الصغيرة في القرى والمدن المجاورة، لكن الذي يتحمل ويستمر يمكنه أن يدخل المدرسة الإلزامية، أو الأولية، ونادرًا ما عرف أحدنا طريق المدرسة الابتدائية، والتي كان يدخلها أولاد الذوات والأثرياء في البندر القريب، ولذلك فسوف تدهش إن عرفت أن أبناء الأثرياء لم يكونوا – مثلنا – يبدأون مشوار التعليم بالكتاتيب، لم يكن ثمة واحدًا منهم في كتاب سيدنا الشيخ محمد عثمان، هذا الذي شدني فيه الألفة بقوة من فتحة جلبابي كي أقف أمام سيدنا الشيخ مباشرة لأحس بأن الطامة الكبرى قد وقعت.

كتاب الشيخ محمـد عثمـان كـان علـى غيـر مواصفات كتاتيب العالم كله، فسحة رحبة مظللة بتكعيبة عنب، تقوم على كل أضلاعها مصطبة بحزاء الحـوائط مغطاة بالكليم أو الحصير وفي الداخل مضخة مياه فـي غرفة جانبية، وهذا الكتاب ملحق ببيت سيدنا الشيخ محمد عثمان الذي يشبه بيوت الأثرياء في الفرش والحجـرات وعدم اختلاط أهله بالجيران الفلاحين بالـذات – وهـو الأمر الذي لا تتصف به باقي كتاتيب القرية أو القـرى الأخرى.

سيدنا الشيخ محمد عثمان لم يكن أعمـى – هـذه واحدة والثانية أنه لم يكن ذا كرش من كثرة قيادة طقوس الأفراح، لأنه كان قارئًا جيدًا للقرآن الكريم في المآتم فقط دون الدخول في هيصة مأكولات المناسبات السعيدة، كما كان أنيقًا ونظيفًا وطويلا وعريضًا، لقد تعودت أن أقبـل كفه صغيرًا، وظللت أقبل كف الشيخ محمد عثمان هـذا وأنا في أجازات السد العالي في الستينيات..

ذلك أن كتاب سيدنا الشيخ عبد الودود كان مجـــرد غرفة رديئة التهوية ملحقة بجامع الشاويش، وهو أعمى، وشرس، ونفس الأمر نفسه الذي ينطبق علـــى كتاتيـــب بحري البلد وكل سيدنا في بحري البلد أيضًا.. وبالـــذات عند بيوت عائلة الجاحر، التي كانت أيامها عائلة طبقيـــة للعائلات لم تتح لها فرصة للتميز إلا بعد ظهور زعيمها الحاج يونس.

وعندما مثلت بين يدي سيدنا الشيخ محمد عثمان، الجالس في صدر الكتاب، أشار للألفة أن يتركني، أمعن في وجهي، وأمرني أن أقترب، فاقتربت مضطربًا أكـــاد أنهار، كانت يداه خاليتين من أدوات العقاب: الزخمـــة أو الخيزران، أمرني أن أقترب أكثر، حتى أصابني الجمود والفشل الحركي، حينئذ همـــس فـــي صـــوت واضـــح: سورتك؟ يسألني عن السورة القرآنية التي وصلت إليهـــا في الحفظ، "إذا السماء انشقت"، قال في صوت واضـــح: اسمها سورة الانشقاق، أسمعني، "إذا الســـماء انشـــقت، وأذنت لربها وحقت، وإذا الأرض مدت" قـــال مقاطعـًــا:

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم قبل قراءة القــرآن، ثــم بسمل: أي قل بسم الله الرحمن الرحيم، قــل – وكنــت أتراجع للخلف خشية هبوط كف سيدنا في أي وقت على صدغي: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بســم الله، مــد كفه إلى رأسي فأحسست بــالخوف ينــداح ويتســامى ويتلاشى، إن أحدًا لن يحس بهذا العطف الــدافق الــذي تريقه الكف – إن وضعت في حنان فوق الرأس، ومــال إلي في هدوء وهمس: أين كنت طوال الليل؟

اضطربت اضطرابًا شديدًا، وانحرقت إشــعاعات العطف في ثوان، أين كنت في الليل؟؟ إذن فقد جــاءت شكوى ضدي من مكان لا أدريه، أمي أو أبي أو أي أحد آخر، ذلك أنني كنت في مكان لا يسهل الوصــول إليــه ليلا، قبل أن أجيب عن استفسار سيدنا صرخ في وجهي بشكل مكتوم: إبليس سوف ينفرد بــك، ســوف يقطــع خبرك..

- ١ -

كان بيتنا – الذي أقامه أبي بشكل تلقائي (بدلاً من لفظ عشوائي)، يقع على مسافة صغيرة من القرية، وسط حقلنا الذي كان أبي مشغولا بتوسيعه دون مراعاة لجوعنا، وفي فناء البيت سبع نخلات، ولا يوجد بالمنزل أي أساس ذي شأن، الحصيرة والمخدات الملففة والأجولة الفارغة للسماد والحبوب، والكليم الذي نتغطى به شتاء (وقد اندهشت حينما كبرت ووجدت كثيرًا من المنازل تفترش الكليم كالحصير)، ثم فوق البيت غرفة بها نافذة، كنت إذا ما استعملتها سوف تجد الحقول وأجمات النخيل تملأ الأفق، وتفتح أبواب الخيال، وتدفعني دفعًا إلى محاولة دخول الحقول ليلا، وكنت خائفًا، لكن أبي صحبني مرات إلى هذه الحقول ليلا، وتركني أهش على البقرة كي تظل دائرة في الساقية وهو هناك يروي الحقل البعيد..

كان أبي – لكي يثبت شطارتي – يقول عني فرحًا: عفريت، ثم يصفني بالرجولة المبكرة، وكثيرًا ما

ناداني: إبليس، ولاسيما في تلك الحوادث المترادفة حينما كنت أشج دماغ ولد في اللعب، أو ألقي التــراب علــى رغائف الجيران المرصوصة عجينًــا تحــت الشــمس، فأفسدها.

غير أن الأمر اختلف حينما أحسســت بضــاغط غامض يدفعني للنزول ليلا من البيــت والســير وســط الحقول، كان أبي – حين كنت أصــحبه – يفســر لــي ترتيبات النجوم في السماء، هذه هي نجوم العصي (بضم العين وكسر الصاد وتشديد الياء)، وهذا سواق العصــا، يقصد النجوم العاصية، (عرفت بعد ذلك أنها مجموعــة الدب القطبي)، وهذا نجم الجنة الصاعد من الجنــوب – لأنه في اتجاه مكة المكرمة، وهذه النجمة المســتحية، أو التي تستحي لأنها لا تظل في السماء طويلاً، وهذه نجوم ثريا، ثم هناك نجمة قرنفلية تظهر في السمر – أي بعــد منتصف الليل: إنها نجمة الصباح، ويــزعم أبــي أنهــا النجمة التي تحارب الشــيطان، وأن إبلــيس يخشــاها، والدليل على ذلك أن القتل والســرقة ومداهمــة النســاء

والاستيلاء على البهائم وأواني النحاس، لا يتم أبدًا إذا ما ظهرت نجمة الصباح، وكان أبو زيد الهلالي يهتدي بها خلال رحلته من نجد في شبه الجزيرة العربيــة، حتــى وسط الصعيد، وأن متاعب أبو زيد الهلالي بدأت حينمــا اتجه غربًا إلى تونس الخضراء، لأن سماء تونس لــيس بها نجمة الصباح.

وحينما استطعت في المرة الخامسة أو العاشرة أن أتوغل أكثر وسط الحقول، مخترقًــا تلــك المســاحات الساحرة من حقول القمح أوائل الربيع، أي حينما جلست على شط البدرمانية – تلك الترعة المؤدية إلى بني حرام والدرمان وأسمو العروس – كانــت قريتــي كلهــا قــد وضعت رأسها على وسادة الصمت، والأزيــز النــاعم للحقول يبث في الجوانح خوفًا دقيقًا ومرعبًــا... وكنــت سعيدًا..

وفي البدايات مر رجلان، كــان يحمــلان شــباك الصيد، وألقيا بالسلام، فرددت السلام بصوت صبياني – طفولي – واضح، فتوقفا قليلاً، في صــمت، ثــم عبــرا

موقعي في سرعة، وكنت على يقين أن إبليس لم يكن فيهما، نعم إبليس، فقد عرفت أن إبليس لا يظهر برفقة أحد، إنما هو يأتي بمفرده، كما أنه لا يخاف إلا من سماع آيات القرآن الكريم، وكان أحد الرجلين قد انهمك – خلال عبورهما – في تلاوة الآيات المقدسة، فأسعدني أن يعتقدا أني أنا إبليس، وكان هذا في حد ذاته مثيرًا لأفكاري، ذلك أن مجموعة المعلمين الذين قاموا بصياغة هذه المرحلة من حياتي أخطروني مرارًا بصفة شخصية وبمفردي أو في جلسة مليئة بالبشر: في الكتاب أو في بيتنا أو على المصاطب أو في آخر ليل المأتم – أن إبليس وراء كل شر، وأن إبليس من أهل النار، وأن إبليس هو الذي أودى بآدم وحواء إلى النهاية الشائكة هبوطًا من الجنة الجميلة إلى الأرض اللعينة..

هؤلاء المعلمون كانوا أبي وأمي وخالي – انظر المدرسة الأولية – وسيدنا وأصحاب القدرة على القص وإزجاء الحكايات والأغاني والمواويل، وكلهم كان يصفني بأني إبليس، فلما عرفت تاريخ إبليس هاج بي

الشوق أن أراه، ولم أكن مســتعدًا أن ألتقــي بــه فــي الخرابات والبيوت الخاوية والمقابر، ذلك أن الذي قام به إبليس كان في الجنة، ولا بديل للجنة سوى هذه الحقــول الممتدة أمامي، والتي بدأت آلف الجلوس علــى حــاجز أو شاطئ ترعة فيها، وأظل أرقب النجــوم حتــى يبــدأ إحساسي – كالتنميل – يجعلني أترقب، ونادرا ما كــان يمر بي – خلال هذا الظلام المنيــر – رجــل بمفــرده، وكنت أرقب المارة، هؤلاء الذين ما يكادون يحــازونني، حتى يلقوا بالسلام، ثم تبدأ آيات القرآن الكريم تندفع فــي تلعسم فأحس – من جديد – بالسعادة القصوى، وتظــل قريتي – هناك في الأفق جاثمة على عتمتها، ثم – فــي حالات قليلة لكني أذكرها جيدًا – أفاجأ بعيون تتلألأ من وسط نبات (الساسابان) وغابــات الحلفــا، ومســطحات النباتات القصيرة، قط بري أو نمس أو ثعلب، ذات مــرة فوجئت بذئب واضح المعالم، داهمني الرعب لكنه ظــل ممعناً – بعيونه النارية، ثم ظل ثابتاً وســط الحشــائش، كانت الحكايات قد علمتني ألا أجري أمام أي حيــوان –

أو إنسان – فسوف – يطمع في التهامي، وأحسن طريقة هي الثبات، ولم أكن أملك سوى الثبات، كنت مشلول الحركة، وظل الذئب واقفاً، ثم فجأة تراجع للخلف، وبدأ يتقافز في الحقول، هل سمعت عن ذئب هاجم إبليس؟؟

ثم يزيدني متعة أن شهابًا مضيئًا ينطلق في السماء، كنت قد اعتقدت أن الشهب التي تخترق السماء بنور لامع وتتلاشى هي رصاصات منطلقة من منطقة بعيدة، ثم عرفت أنها صادرة من نجوم تدرأ عن نفسها هجوم الشياطين، ثم قالت لي واحدة من أشهر ندابات الجنائز أن الشهب هي إعلان لانتصار الموتى ضد الشياطين، وهناك (عدودة) أي نص في مراثي الميت الغالي تقول:

إيش جسر الغاسل ومين قال له
شهاب منور دخل قلبه
إيش جسر الغاسل ومين وراه
إبليس ما يقدر على اللي كان وياه

والمعنى أن الغاسل – القائم بتغسيل الميت رأى الشهاب يدخل قلب الفتى الذي مات، لأن إبليس لا يستطيع أن يهيمن على واحد مثله. ثم بعد كل ذلك كان الصمت يصنع هالات من دوائر بين السماء والأرض، هذه الدوائر الغامضة التي جعلتني أفعلها..

– ٢ –

عندما تحركت إلى الحقل الموازي لترعة البدرمانية – في تلك الأيام – لم أكن أتحرك بصفتي لصًا، لم يكن الأمر يعني السرقة من أي زاوية، كنت قد أحسست أن المكان كله – بصمته وأصواته ونسيمه ونباتاته ونجومه – يخضع لي، وأن الواجب يفرض علي أن أزداد متعة، حيث ظللت أتحرك وسط الحقول حتى وصلت إلى بوادر حقل أولاد الجمل، طماطم، نعم، كان أولاد الجمل قد أثروا ثراء عظيمًا بسبب قيامهم باستزراع الطماطم في مساحة محدودة من تلك المنطقة ذات المساحات الواسعة، والتي تهيمن عليها قريتنا، فقد ظلت قريتي – ديروط الشريف – وهي من أكبر قرى

مصر – لا تحبذ زراعة الطماطم والثوم والفجل والباميا والفاصوليا، كانت الزراعات التي برعنا فيها هي القمح والذرة – بأنواعها – والسمسم والفول، وكانوا يتركون غير ذلك من زراعات لقليل الشأن من صغار الفلاحين، وكانت قرية بانوب القريبة تزرع البطيخ والشمام وكيزان العسل والطماطم والفجل والجرجير والثوم وباقي الخضروات، وبسبب ذلك كنا – ونحن نساوم في شراء البطيخ أو الطماطم – نتعالى على أهل بانوب، ثم قام أبناء عائلة الجمل بزراعة الطماطم زراعة واسعة في زمام قريتنا بعد أن كانت هي وإخوتها من خضروات لا تزرع إلا على هوامش الحقول، (الآن تزرع قريتي كل أنواع الزراعات)، فما كدت أصل – في تلك الليلة إلى بوادر حقول أولاد الجمل حتى تلمست – في الظلام – ثمار الطماطم، لم أكن مدربًا بشكل كاف، ولذا فقد قطفت عدة ثمرات، اتضح لي – حين تذوقتها – أنها خضراء مريرة كانت ثمة ثمرة واحدة من الطماطم ناضجة.

بعدها أصبح مهما – غاية الأهمية – أن تـــتلمس أناملي بدن الثمار، وتتحسسه في رفق حتى تتيقن من أنه ملمس ناضج، كان ذلك يأخذ وقتًا مرهقًا حتـــى تكـــون أغلب حصيلة الاستيلاء ناضجة تصلح للالتهام، لكني – بعد عدة فصول – بدت أصابعي تعرف الطريق مباشرة إلى الثمرة الناضجة دون النيئة أو الخضراء أو الناضجة نضوجًا كبيرًا يقربها إلى أن تكون معطوبـــة أو فاســـدة، هي مرة أو مرتان كل أسبوع، أهيم فيها حتى أصل إلى حيث أجلس ثابتًا، أداعب النجوم والقمر أحيانًا كثيـــرة – والضوء اللامع السريع للبرق، وللشـــهب، وأرد الســـلام على العابرين النادرين، ويكون الأمر قد اســـتوى فـــي صدري، فأحس بأن الثمار تدعوني، فـــأخترق القنـــوات وأشواك الأسوار، لأقتطف تلك الثمار التي أجلـــس فـــي هدوء لألتهمها، ثم بعدها: أقتطف الثمار التي أمـــلأ بهـــا حجري، كي أعود إلى البيـــت قبـــل أن تغـــرب نجمـــة الصباح، طماطم، وخيار، وقثاء (في بلدنا يطلقون عليها العجور)، كوسة وفول أخضر وفاصوليا وبسلة (بـــازلاء

بالفصحى)، وعندما كانت الحقول تخلو من الثمار كنت قد بدأت أتسلق أسوار حدائق الفاكهة وراء بيوت المعاوضة: الموز والبرتقال، واليوسفي، لكن الأمر – بالنسبة للحدائق واجه مشكلة مرهقة، فقد قفز كلب ورائي في ثغرة السور، وجذب بأنيابه جلبابي من الخلف فمزقه، لكني مرقت في الحقول المجاورة مرعوبًا، كان واضحًا أن إبليس قد اندفع جبانًا إلى ثغرات السماء، كان الظلام حالكًا دون نجمة واحدة.. لقد نمت بعدها طويلا في منزلنا..

وحينما كنت أعود – من تلك الجولة الليلية – في الحقول، وأدوس على باب بيتنا الذي لم يكن يغلق أبدًا، وألقي بحمولة حجري من الثمار، كانت أمي تقوم مفزعة وتسألني – في تصميم من يسعى إلى الحلال – عن مصدر ذلك، وكنت أفرط في حكايات عن العيال الذين أصحبهم إلى حقولهم فيمنحوني مما وهبهم الله، لكن أمي بدأت تتعود أن تجد كومة الثمار بجوار الحائط، فتسألني عن مصدرها دون جدية في السؤال، أو دون انتظار

إجابة، ثم بدأت تهمل السؤال من أساسه، وحينما كانت مدة عدم التحصيل أو إحضار الثمار – تطول، كانت تسألني عن سبب هذا التقصير، والذي كان يطول أسابيع، ولم تكن أمي تحب أن أعود إليها بالبلح، أولا أن في بيتنا سبع نخلات مثمرات، وثانيًا لأن البلح يحتاج إلى تسلق النخيل، وفي الليل يصعب قيامي بذلك بعد أن داهم ثعبان كبير خبير تطليع النخل في عز النهار، كما أن رجم النخيل بالطوب ليلا غير مستحب ويفضح من يقوم بها، مما أدى بي أن أحاول اختراق حقل باذنجان أسود، هذا الذي لم أفكر في الاستيلاء عليه من قبل، لكن الأمر انقلب فوق رأسي، فقد فوجئت بعفريت شرس يطلع – فجأة – من بين نباتات القطن، كان عاريًا تمامًا، وكان ضوء السماء قد كشف عن بقع الطين التي تملأ هذا الجسد العاري، حينما مد يده إلى جسدي متشبثًا: أنت ابن مين؟؟ واندفع إبليس تاركًا جسدي لأفاجأ بنفسي مجرد صبي يبكي ويصرخ: أنا ابن أحمد أبو مستجاب، آه أنت خالك الناظر؟ وتركني..

وظللت أتقلب في فراشي – تلك الليلة – مرعوبًا، كنت قد أخطأت في عدم استعمال آيات القــرآن الكــريم لتبطل وتشل حركات العفريت، وهذه الآيات التي جاءت مندفعة وأنا أمثُل بين يدي سيدنا الشيخ محمــد عثمــان صباحًا حينما همس لي وعيونه في عيوني: أيــن كنــت الليلة..؟؟

وأيقنت أن الطامة الكبرى قد وقعت وأن العفريت قد أبلغ سيدنا، فانهمكت في الصــراخ البــاكي، والــذي أقسمت خلاله أنني لم أغادر فراشي، لم أغادر فراشــي منذ خرجت من الكتاب أمس حتى صباح اليــوم، وهــو ما أكده أبي وأمي حينما توجه الألفة لسؤالهما، كما أكده كل أخوتي البنات.. ولما ضغط الألفة أقسم له أبي يمــين الطلاق بأني لم أغادر البيت وإلى يوم وليلة أمس، حينئذ، وبعد هذه الواقعة، وما أثير حول لصوصــيتي، ظللــت مهمومًا بسبب إبليس – أو من أجل إبليس، هــذا الــذي أسقطني من جنة الحقول كي أظل شــهورًا فــي جحــيم المنزل وشوارع القرية، لماذا لم يستطع حمايتي؟ لكــن

الأمر لم يدم طويلا، فقد بدأت حقول الطماطم والخيـــار تشيع في الجو أريج المتعة أن أمتلكها..

وكان مناسبًا أن أسترد علاقتي بـــإبليس بشـــروط جيدة مناسبة للنهار قبل الليل.. تاركًا أمر الليـــل لمتعـــة انطلاق الخيال الذي لا يصلح فيهـــا إبلـــيس بـــالمرة.. ولاسيما أن الأمر قد بدأ يدخل في مسائل أخرى مرهقًـــا أن نذكرها هنا، حيث بدأ الصوت يخشن، وبثور المراهقة تملأ الوجه ببوادر الشارب المخضر يحاول الظهور في عنفوان الليل، وهدوئه أيضًا..

سلامًا على الحاج محمود

انتظارا للغرباء

●● فجأة، ودون أن يتدخل أحد، اكتشـــفت أمـــرًا مذهلا، داهمني، وحطم قلمي، ثم مزق أوراقي، وألقـــى بهـــا قصاصات متناثرة فوق جسدي العاري المرعوب.

كل أبطال قصصي ومقالاتي في الأحقاب الأخيـــرة مصابون بالعقم.

أعوذ بالله.

وهو أمر مرهق ويخنقني، ويحول بيني وبين حريـــة الحركة، وذكاء الإشارة، ودفء المعاني، ولاسيما وأنني كنت قد بدأت أعد العدة للكتابة عن الحاج محمود، الكريم، الجدع، المضياف، الصبور، التقي الورع، هذا الذي كان النسيم يبتسم له، والأخلاق الكريمة تمرح فوق أكتافـــه، الهـــادئ الـــذي لا يفوته فرض في الصلاة أو الزكاة أو التصدق أو انخفاض الصوت، أو الابتسام للأرامل، أو مسح رأس العيال، ثـــم إن الحاج محمود أدى فريضة الحج مرات: المرة الأولـــى مـــع زوجته الثانية، والمرة الثانية مع جمعية مراعـــاة الأخـــلاق القويمة، والمرة الثالثة بمفرده، ولا يخفى على أحد أن الرجل

تبرع مرات للمسجد ولمقام الشيخ محمد الصباغ، هذا الشـيخ العظيم الذي رأيته يسير في طرقات القرية وقد أفاض علـى جسده بالخلاخيل والعقود والأساور والحلقان، نعـم: كانـت الحلقات المعدنية تخترم الأذنين ومداخل الأنف والبارز مـن الخدود، وكنا جميعا نحب الشيخ الصباغ وهـو يـدب فـي الطرقات بصوته المشابه لبداية نطق الأطفال، وحذائه الضخم المصنوع من رقاع الجلود تشع بالضوء " قبـل أن يظهـر الحذاء الحديث الذي يعلن عنه في التليفزيـون الآن"، حينئـذ جاء الشيخ الصباغ إلى الحاج محمود في المنام، كان يرتدي ملابس شاهقة تشع بالأبيض الملائكي، ثم غاب فترة، وجـاء مرة أخرى إلى الحاج محمود في المنام وقالها له صـريحة: أصبر يا مؤمن أصبر يا مؤمن، وفور أن اسـتيقظ الحـاج محمود من منامه عرف الخبر: الشـيخ الصـباغ صـدمته حلزونة زكي أبو فراج ومزقت جسـده المتـألق بالمعـادن، وكانت المرة الأولى التي يخرج فيها الحاج محمود من بيتـه عاري الرأس والصدر، صارخاً، مع السلامة يا سيدنا، مـع السلامة يا سيدنا، وهرع إلى موقع الحادث ملتاعًا لكن الناس أعادوه إلى بيته منهارًا.

كنت أتابع الحاج محمود في الغدوّ والرواح والمساجد ومواقع ذكر الله، في السوق وزوايا الصلاة وأركـــان فعـــل الخير سرًا حيث لا تعرف يمينك ما فعلت يســـارك، أتـــابع الحاج محمود على حصانه ووسط جيرانه، وبين مستعمرات أغنامه وجماله، وهو يدخل المأتم فيهب الجميع وقوفًا حتـــى قارئ القرآن الكريم الذي تحميه الأعراف من الوقوف، وهو يقود موكب التأييد والولاء والمبايعة، ثم وهو يتهادى – هادئًا رصينًا – أمام جنازات وداع الأحبة والأصـــدقاء، لا يبكـــي ولا يصرخ ولا ينبش التراب – وجلا – فوق دماغه.

والمصيبة الكبرى، أنني، وأنا ألاحظ الحاج محمود، لم أنتبه أبدًا أنه غير منجب، أي أنه عقيم، وأنه بذلك قد انضم إلى أبطالي، دون تفريط في حق الرجل أن يبحث لنفسه عن حل، هذا الحل الذي – نعتقد – أنه بدأ بظهور الشيخ محمـــد الصباغ في الحلم، حتى أنه الحاج محمود – فيما قيل – بكى بين يدي الشيخ الصباغ، وأن الشيخ الصباغ كـــان غاضـــبًا، وظل بيديه القصيرتين المجللتين بالأساور والخواتم والدوائر النحاسية – يضرب على دماغ الحاج محمـــود حتـــى كـــاد يدميها، أدماها فعلا وسال الدم على الوسادة.

والذين اهتموا بالموضوع – معظمهم من الورثـة – أكدوا الأمر، وهمسوا بأن الحاج محمود وقع مرات في براثن المدعين والمشعوذين والدجالين، وأنه فقـد نقـودًا وغـلالا وجمالا وخرافًا تحت ظلال دخان المباخر ومناقد "جمع منقد" التهاب عظم الذرة الشامية مع المستكة والملـح والكبريـت الخام وزيت المحاشم "منطقة المخاصي" وماء الورد وخشب الصندل، وأن الحاج محمود أقنع ابن عمه – ذات مرة – أن يطلق زوجته المنجبة ليقترن بها، وأن الحاج محمود صـبغ ظهر زوجته الثالثة بالحناء والقرظ ومزيج صفار البيض مع تمائم الحبر الزفر "وليس صحيحًا" أنها قضت عمرها مريضة بسبب ذلك بل لأنها أصيبت بالجرب المزمن، ثم كان ما كان من زوجته الرابعة التي استطاعت أن تنقذ الحاج محمود من مصير أبطالي: الانتحار أو الموت كمدًا أو الانسحاق تحـت مباخر المشعوذين.

فقد حملت الزوجة الرابعة للحاج محمود، حملت أي حبلت وتكور بطنها ليشيع في الرجل المؤمن إحساسًا دافقًـا بالحياة، لينتشي وتعتدل قامته، ويعود إلى حصانه يمتطيه في قفزة واحدة، ثم لم يلبث الشعر الأشيب – أو الشـايب – أن

تساقط شعرة شعرة، كلما تضخمت بطن زوجة الحاج محمود، عاد الشعر الأسود ليحتل موقعة الأثير في رأس الرجل الكريم، هذا الذي زاد كرمه أكثر، ووصل عطاؤه إلى درجة تأثيث كل مساجد وكتاتيب المنطقة من جديد.

غير أن مسألة التأثيث توقفت، ففي الشهر الخامس أو السادس نزفت العزيزة لسبب غير معروف حتى الآن، ثم انتهى الأمر إلى ما يجب أن ينتهي، والحمد لله أنها "جاءت سليمة"، فأخفى الحاج محمود غضبه ونكده وحاول أن يتظاهر أنه سعيد جدًا، وغير مهتم بما أشيع من أن شيطانا داهمها في عز النوم، لا يهم، وظل هكذا حتى تكور بطن الزوجة الرابعة من جديد، وحرص الرجل على تنظيف المنطقة المحيطة ببطن زوجته من الشياطين والعابثين والكارهين، غير أن الأمر هذه المرة لم يصل إلى الشهر السادس أو الخامس، فقد جاءت طبيبة تعزي في بنت أخت الحاج محمود التي رحلت نتيجة سوء استخدام سلك الكهرباء، ماتت وهي واقفة، وكشفت الطبيبة الحكيمة على البطن المشار إليه، ولم تتكلم، ولكنها دعت الحاج محمود لتحادثه على جنب: الحمل مجرد انتفاخ، حمل كاذب.

أصبح ملائما الآن أن يظهر الشيخ محمد الصباغ في المنام من جديد، كان يطير في الهواء حينما سحب الحاج محمود معه إلى أعلى وتركه يسقط، أعوذ بالله، ثم بعد ذلك بعدة ليال أخذه في أحضانه وظل يرقص به حتى ألقاه في مقابر النصارى، أعوذ بالله، وفي اليوم التالي مباشرة جاء الشيخ الصباغ إلى الحاج محمود، لم يأته في الحلم، بل جاء يسعى بحذائه الغليظ الرقيع المضيء، وأطنان السلاسل والخلاخيل التي تحيط بجسده الغليظ، جاءه في عز الضهر "نعم عز الضهر وليس منتصف الظهيرة أو أوج الظهر" جاءه في عز الضهر وهو جالس أمام الباب يتهيأ للدخول إلى بيته في القيلولة "اتقاء للقيالة" كان الشيخ محمد الصباغ قد مات منذ سنوات، وكانت القرية قد اعتمدته شيخًا أثيرًا فاعلا ومؤثرًا لتضيفه إلى قائمة الأولياء الفاعلين المؤثرين المحبوبين، وكاد الحاج محمود – حين رآه – يغشى عليه، لكن الشيخ محمد الصباغ مدّ ذراعه القصيرة لتستريح كف يده على دماغ الحاج محمود المضطرب، خمسة غربان يا حاج محمود، خمسة غربان سليمة لا جراح فيها، عليها أن تحب وتقوق وتنقنق بين وركي زوجتك خمسة أيام كاملة،

ذلك أن الجزء الأسفل من زوجتك يقيم فيه عفريت ملتاث أحمق، ونقطة الضعف فيه أنه يهاب الغربان، سيأتيك الولد الذكر بإذن الله فلا تتوقف عن فعل الخير، الله أكبر، وصرخ الحاج محمود، وحمله أهله من خارج الدار إلى داخل الدار، وكاد لا ينطق أيامًا حتى استعاد نفسه.

***

كان الطلب بسيطا، إذ أن القرية تعجّ بالغربان، وهمس الحاج محمود – في حسم – بما رآه من الشيخ محمد الصباغ إلى أولاد عمومته، كان الأمر واضحًا لا يحتاج إلى جدل، فقد سبق لنا مواجهة أنواع متعددة من الشياطين والأبالسة، شيطان – ذات مرة – لجأ إلى ثدي بنت قابيل فتم استئصال الثديين ودفنهما مع جسد البنت قبل نهاية النهار، وإبليس سكن في رقبة بنت الفخراني مما جعل حنجرتها تفرز أنغاما داعرة أثارت رقصات الشباب، وقد هجرت القرية كلها بعد أن رفضت العلاج، وشيطان في بئر السوق – وهي التي التهمت ابن البطران، ولا ننسى العفريت الذي كمن في زرعة إبراهيم بخيت وأشعل فيها النار، كذلك كان الشيطان الذي لبد في قلب كتب زكريا أفندي جعله يتكلم بحب وعشق

عن مذاهب كافرة يقال لها الوجودية، وعندما قررنا علاجه اتضح لنا أن الرجل لا يعرف ما نعرفه عن قدرات المشايخ والأولياء والقديسين، وقد نقله أصحاب الشأن إلى مناطق أخرى لا نعرف عنها شيئًا.

وبناء على تعليمات الشيخ محمد الصباغ – التي جاءت حية دون منام – ساح أهل الحاج محمود في البقاع بحثًا عن غربان سليمة، وأول ما اتضح أن المبيدات والغازات والمواد المستعملة في نهضة الزراعة قد أبادت كل الطيور، وبالذات الغربان، وعرفنا أن الغربان لا تزال تعيش على الحافة بين أطراف الوادي وبداية الصحراوات الشرقية والغربية، وقريتنا بعيدة عن هذه المواقع، فقامت الوفود إلى هذه النواحي لتتفق وترعى حسن التنفيذ، وبعد أسبوع جاء غرابان من نجع بعيد، وبعد أن حصل صاحبهما على مائة جنيه كاملة، اتضح أن واحدًا منها مصابًا تحت جناحه، وبعد يومين جاء غراب من قرية أخوال الحاج محمود، وكان شرسًا مشاغبًا ذا صوت متشائم، لا يهم، ثم جاءت ثلاثة غربان من جنوب البلاد لكنها كانت أفراخًا صغيرة لم يكتمل ريشها، واتفق أن تكمل هذه الأفراخ نموها تحت هيمنة زوجة

الحاج محمود، هذه المرأة الأمينة التي لم تلبث بطنها أن انتفخت، وبدأت تشكو من الوحم، وتشكو من خبط أقدام الجنين، وتشكو من انغلاق شهيتها عن الأكل، وتشكو من ظهور كتاكيت في أحلامها، مما يعني التفاؤل الكامل الذي يربط بينها وبين الغربان، ثم بدأت تشكو من رغبتها القوية في التهام الكتاكيت، ورأوا أن يقدموا لها نوعًا من الكتاكيت النامية التي تسمي " البلالين " تكون قد فارقت مرحلة الكتكتة إلى مرحلة النمو المؤدي للدجاج، لكنها صممت أن تأكل الكتاكيت التي هي كتاكيت دون أي تحوير، وجاءت الآراء المدروسة تنص على أن لحم الكتاكيت غير حرام، ولا يوجد نص يحول بين زوجة الحاج محمود وتنفيذ طلبها.

***

في الوقت نفسه كان القفص الكبير المركون في مدخل البيت قد حظي بستة غربان، ألقوا بجثث ثلاثة أول أمس، ثم قام اثنان بتمزيق جسد الغراب السادس، لا يهم، آخر النهار جاءت غربان أخرى من بحري البلد، ومن بيوت أصحاب معامل الكتاكيت، ومن تجار البيض، وتم عزل كل غراب يأتي في قفص مستقل حتى لا تتآمر على بعضها،

واتضح للجميع أن الغراب طائر متــوجس خــائف شــكاك، لا يقع في الأسر أو في شباك الصيد بسهولة، وأنه لا يستقر على أرض أو على غصن إذا مــا رأى شــبكة أو بندقيــة أو ملابس ملونة، وأحضر الشيخ محمود واحــدًا مــن أولاد العائلة الذين أصابوا حظًا في التعليم وأجلســه أمــام الــدار، الغراب الكبير السليم بمائة جنيه، ثم تهبط الأسعار كلما حاق بالغراب إصابات أو شيخوخة أو طفولة، وكان ذوو الحظ في الحصول على غربان يقفون طوابير لحــين الانتهــاء مــن الفحص وتقدير السعر المناسب، ثم كانــت تلــك الفضــيحة الصغيرة حينما اتضح أن بعض الغربان لم تكــن غربانًــا: كانت سمانًا أو دواجن أو فرخ صقر أو بلــبلا: أو عنــدليبًا أو يمامة أو أبا قردان أو أبا فصادة أو عصفورًا أو أي طائر يمكن صباغته باللون الأسود، وجاءت لجنة للفحص وتقــدير أجورها عن الفحص، وتكور بطن الزوجــة أكثــر وبــدأت تهرش في ثدييها وسرتها وفي مؤخرتها، وكانت الغربان التي هي تصلح لاستخراج العفريت من بين وركيها قد أصــبحت أربعة.

أما باقي الغربان فقد أثارت المــرح فــي القريــة، وعادت إلى عنان السماء والشجر، حيث تم اصطيادها مــن جديد وإعادة صباغتها.

والحاج محمود لا يزال، يدفع لمن يصيد، ويبتسم في وجه من يرى له حلمًا، ويهش في وجه زوجته الصبورة أن لكل شيء نهاية، وينظر إلى الغربان في القفص فيتضح أنها ماتت وتحولت إلى جثث.

لكن الأمل لا يزال قائمًا، وعلى زوجتــه الطيبــة أن تسترخي على مقعدها، وأن تتحدث عن حلمها، وعن وحمها، وعن آخر من زارها من المحبين.

فقد جاءت ثلاثة غربان جديدة، ورأت اللجنة ألا تدقق كثيرًا في صحة المواصفات، ولاسيما وأن الحاج محمود قرر زيادة المكافآت للباحثين والصائدين والمدققين والذين يرعون الغربان داخل البيت، والذين يحملون جثث الغربــان لــدفنها خارج البيت.

كما أن الحاج محمود، تطيبيًا لخاطر زوجته، وتيمنًا بزيارات طيف الشيخ محمد الصباغ، بدأ يحتفــل – بالطبــل والزمر – مع وصول الغربان الجديدة.

ومن أيام قليلـــة انضـــمت للاحتفـــالات الغـــوازي والراقصات ومثيرات المتعة.

والحاج محمود يداعب الضيوف ويمسح على رءوس الغربان، ويدعو للجميع بحسن تحقيق الآمال.

وزوجته جلست على الأرض مرتكزة بظهرها على الحائط، وقد أتاحت لفخذيها استرخاء، ووركيهـــا ارتياحًـــا، حينما مدت أقدامها للأمام، وعيونها ترقب أربعـــة غربـــان مكسحة تتخابط بأجنحتها ... في انتظار الغراب الخامس.

تحت ظلال ... الأسئلة!

●● كل هذا الجمال الممتد في البراري والحقول – وعلى شواطئ الإبراهيمية " ترعة معروفة وليست طريقة صوفية" أثمر في نفسي – مع قليل من اليوسفي – أنواعًا عديدة من الأسئلة ذات الوجه المضيء "بغض النظر عن وجه الإجابة عنها" ثم لم تلبث الأسئلة أن تخلت عن شكلها المدرسي وبدأت تتوكأ على عكازات "جمع عكاز – وصحتها عكاكيز" الاندهاش أو الاستغراب أو الضيق أو الاختناق، أحسست – عندئذ – أن الأسئلة لم تعد تطلب الأجوبة، بل ولم تعد تطيق الإجابة، وأن الجمال – الذي أشرت إليه – ابن عزيز للحرية التي يشير إليها الجميع، وأنني أستطيع إطلاق ما في النفس هواء طلقًا دون اهتمام أن يكون ذا رائحة من نوع روائح دخان معامل الكتاكيت أو قمائن الطوب أو مصانع حديد وصلب أسوان أو مباريات الفرنسي جيلي، سوف يكون ضروريًا أن أضع حكايات المصانع الوهمية للمشروعات الوهمية الخاصة بالحديد والصلب في أسوان "والملايين التي تم نهبها" مع حلقات مسلسل المدرب الفرنسي الرياضي جيلي بآلاف دولاراته الشهرية، في طريق إفساد

البيئة النفسية ذات القلق العارم، الذي يجعل الجمال الممتد في البراري والحقول وشواطئ بحر يوسف – مع قليل من اليوسفي – نموذجا طيبًا للعذاب الأليم المثير للسخرية والرغبة الشديدة في قطع الطريق، إنه الوقت المناسب أن ألقي بالقلم الآن كي اختطف خروفًا أو نعجة أو دجاجة وألوذ إلى الجبال.

لكن الأمر أصبح – فور ذلك – أكثر جمالا وتعقيدًا وسخرية، إذ أن مواصفات قطع الطريق أو اختطاف الماعز والدواجن واللجوء للجبال لم تعد مناسبة لي، إذ لا بد أن أتخلى عن الأقراص الدقيقة "الدينترا والفيللين" الموسعة للشعب الهوائية في الرئتين اتقاء للذبحة الصدرية، وأن أراعي استعمال مخفضات أو مذيبات الدهون أثناء التهام أوراك المنهوبات من الجديان والأغنام والدواجن والكتاكيت، وأن أصغي جيدًا لتعليمات التوقف عن التدخين، قل لي يا صديقي: كيف يمكن أن تقوم بتنفيذ ذلك خلال جلستك الرومانسية فوق الجبال وأنت تنظر إلى كل هذا الجمال في الوادي وبصدرك هذا العدد المذهل من الأسئلة – والأجوبة أيضًا ...؟!

فقررت أن أسلك طريقًا أخلاقيا آخر أقل حدة وأخف حملا وأنقى سريرة، زرت مريضًا جاء بعد غيبة ثروة في الخليج، وحقدي على أصحاب الثروات – دعك الآن من بهجت حديد أسوان وجيلي مدرب الكرة – جعلني أنظر إلى ما يمتلكونه بأنه لعنة وعقاب من الحاسدين تنتهي في معظم الحالات إلى أنواع مروعة من المرض أو الثكل "فقدان الأعزاء" أو الغيبوبة أو القلق النفسي العارم، وبعد أن زرت المريض الثري توجهت إلى المدافن فقرأت الفاتحة على قبر أمي، كان الجو صامتًا بالغ النقاء مما أتاح لي أن أجلس وقتًا على الحائط المقابل وأن أتحرر قليلا من تعليمات أطباء التدخين، ومع الأسف فقد قرأت الفاتحة لحساب أمي دون أن أنتبه انتباهًا أخلاقيًا إلى أن أبي ينام في المقبرة المجاورة، ثم تجولت في قريتي "ديروط الشريف" مراعيًا عدم التجاوب مع دعوات احتساء الشاي المتوالية، والتي كانت تتألق ابتسامًا وفرحًا لأن أهلي شاهدوني في التليفزيون "القناة السابعة" وقد احتضنني محافظ أسيوط: أحمد همام، في سعادة بالغة التألق خلال الاحتفال بمرور عام كامل على صدور جريدة "أخبار أسيوط" – مع تكريمي – المتألق أيضًا – بصفتي من أبناء

الإقليم، وبعدها توجهت إلى بيت ابن عمي حيث وجهت لـــي زوجته نقدًا أو عتابًا أو لومًا لأنني ظهرت فـــي التليفزيـــون "بالجلابية البلدي" وهو أمر لا يصح ويقلل من قيمتي الكبرى التي لا تتحقق إلا بارتداء البدلة، فأصبح الجـــو مهيـــأ كـــي أخترق الحقول – من جديد – متجهًا غربًا، متفاديًا تجمعـــات الأهل، فظللت أسعى في وحدة رائقة على بقايا فروع جداول الترع، كانت حقول القلقاس تحتل المساحة الأكبر فـــي كـــل الاتجاهات، ونحن الآن في آخر شهر فبراير حيـــث تكـــون زراعات القلقاس قد اندثرت تمهيدًا لزراعة محاصيل جديدة، وقد أجابني عن هذا التساؤل المندهش أحد الـــواقفين علـــى ترعة البدرمانية: كل هذا القلقاس سوف يلقي بـــه أصـــحابه على شواطئ الترع لأنهم لم ينتبهوا لتسويقه في الموسم سعيًا لثروات أكبر، وقد حدث ذلك في سنوات عديدة مـــن قبـــل، فأحسست بالسلوان الشرير يملأ أنفاس سيجارتي لأننـــي لـــم أزرع القلقاس هذا العام، دون الانتباه إلى أنني لا أملك أرضًا أو زرعًا بالمرة، كان واضحًا أن الذي يحدثني لم يشـــاهدني في التليفزيون بين أحضان المحافظ، وبالتالي فقد كان ذلـــك مناسبًا أن نتوسع في الكلام عن بقية المحاصيل والمزروعات

من فول وبرسيم وترمس وقمح، لكــن الأمــر انهــار كلــه وأصابته القلاقل والغبار حينمــا داهمنــا عــابر ليأخــذني بالأحضان طالبًا مني أن أتبنى مسألة أخيه، كي أكلم المحافظ ليعيد إليه كشك السجاير والحلويات الذي أزالته الحكومة من أسابيع.

حاولت – بعدها – أن أســتعيد الصــفاء المفقــود، تجولت على شاطئ البدرمانية والشمس تخرج لــي لســانها الدافئ الساخر، وكدت أنحرف غربًا من جديد لأصــل إلــى شاطئ بحر يوسف، لكني أصبحت فاترًا راغبًا في اللجــوء إلى مسكني متحاشيًا الغبار المثار من الســيارات والــدواب والأسئلة والأجوبة وضجيج آلات الري المتناثرة، وحاولــت إطلاق ما في النفس نسيمًا رقيقًا دون أن يكون ذا رائحة من نوع روائح دخان معامــل الكتاكيــت أو جلســات المحــاكم أو المشروعات الوهميــة أو الابتــزاز أو حكايــات عائلــة المدربين والخبراء والسكر المستورد محدود التحلية، أو هذا الصديق الذي التقيت به – آخر الأمر – على رأس الشــارع الذي أقيم فيه، ليتوسل إلي – بكل ما أملك من فروسية وكرم ورغبة في خدمة المواطنين – أن أحصل له على عقد عمــل

في الخليج، أمعنت في وجهه مبتسمًا – في بلاهــة – لعلــه يدرك أنني أفكر في استدراجه إلى موقع يصلح لعمليات قطع الطرق.

وحملت ابتسامتي البلهاء في محاولة كي أجيب عــن العديد من أسئلة لم تعد تحمــل الانــدهاش أو الاســتغراب المناسب، لكني لم ألبث أن استغرقت – تمهيدًا لنوم الظهيــرة – في قراءة كتاب "الموت والوجود" والذي يجيب عن أســئلة أخرى عن الفناء الإنساني، في ترجمة أستاذنا بــدر الــديب للمؤلف الأمريكي جيمس كارس، كي تختنق بعدها الأحــلام والأمنيات والرغبة الكاسحة أن ألجأ إلى الجبال – على الأقل الآن.

الولد عزيز ... ابن عمي رزق

● ● كل واحد مربوط من قفاه، وهذا يعني أن لكل واحد قدره الخاص ذا النهاية الخاصة ولن يفلت، ومع ذلك فإن الربط من القفا يؤدي إلى الإحساس الدائم – والعميق – بالعبودية، أية عبودية؟؟ لا أعرف، إنما هي الدندنات الأولى التي أجد نفسي أعابث بها أوتار مدخل المقال، تمهيدًا لأن أمسك بأول اللحن، ذلك أننا – الواقعون في مأزق الكتابة، نجد أنفسنا دائمًا مجرد أطفال لا نملك سوى النيات الحسنة، والساذجة، نلف وندور كي ندخل الموضوع، الأفكار قائمة لكن الدخول يستلزم صفات غامضة غير معروفة حتى الآن، فنحن أبناء الفلاحين نجد أصداغ مداخل بيوتنا وقد علاها البياض الذي يموج برسومات المراكب والطائرات والكعبة المشرفة مع التنبيه أن صاحب البيت قد زار قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – وطاف حول كعبته المشرفة، ورصد التاريخ ضروري، والإشارة إلى أنها الحجة الثانية أو الثالثة أكثر أهمية، ثم تدخل البيت – بعد أن تجتاز المدخل – فتجد الحصيرة ملفوفة في ركن، ومفرش الصوف – في ذلك العصر – مفروط على نصف الفرن، وبين الفراغات سوف

تجد باقي عناصر المكان متناثرة: المخدة، وفردات الشباشب والقباقيب، ووحدات من ملابس معلقة في حبل يقتسم نصف المكان كما يفعل خط الاستواء الإفريقي، وصحون وأطباق وآنية لا ينتظمها مربع واحد، ثم هناك سوف تجد الكانون بجواره وابور الجاز ثلاثة أكواب – أيضًا لا ينتظمها نموذج واحد، الزير وقدرة تصقيع المياه في الركن المقابل – من باب التوازن.

هكذا كان بيتنا، دون أن يحظى بزخارف أداء فريضة الحج، وهكذا كان بيت عم رزق أبو عطية أيضًا، أول بيت في درب النصارى، وكي أكون واضحًا فإن درب النصارى يسكنه بالفعل عدد من النصارى دون مسلم واحد، لكن هذا يعطي انطباعًا – أو استنتاجًا – بأن النصارى – في بلدنا – غير منتشرين في الشوارع الأخرى، أبدًا، إنما الأمر يبدو – اجتماعيًا – كالسلسلة الأيونية في الخلايا، تلك التي رأيت نماذج لها حية عندما كنا في السد العالي، فأي واحد يأتي من قرية في الصعيد يكون رأس حربة لمن يأتي خلفه من منطقتهم، يعملون جاهدين أن يسكنوا في (بلوك) واحد، وأن يعلموا في إدارة واحدة، حتى إن الإدارة المالية في

شركة ضخمة كـ (المقاولون العرب) ظل معظمها من بني سويف، بما فيها معظم إدارات المخازن والتوريدات، لأن أول مدير مالي لها من إهناسيا الخضراء التي اشتهرت في ذلك العصر أكثر مما اشتهرت به الإسماعيلية والعريش بصفتهما الموطن الأصلي لصاحب الشركة، وكل هذا – أيضًا – وارد في كل المؤسسات في بلاد العالم الثالث، وبالتالي فقريتنا مفعمة بالنصارى الذين يقيمون – متناثرين – أو يقيمون في درب واحد، بيت عم رزق كان يفتح بابه الأصلي على أول متر في مدخل الدرب، ويفتح شباكًا على الشارع الكبير، هذا الذي كنت أسلكه حتى أصل إلى الشباك، وأخبطه بيدي مرات، كي يخرج زميلي الأبيض الجميل عزيز ابن عمي رزق أبو عطية.

كان عزيز رزق في وضع عائلي يماثلني، جاء الذكر الأول على خمس بنات، أو أربع، كن كلهن جميلات جمالا أخاذًا، وعندما يخرج عزيز من باب البيت كانت أمه تطلب مني ألا نلعب في (الحتت الوحشة)، وألا نطارد الزنابير، أو نقترب من الترعة، وكانت تنبهني أن نتفادى الجمال العضاضة والحمير الرافسة والكلاب السعرانة، كان عزيز

مؤدبًا لا يسلك طريق الشقاوة الذي اشتهرت به، كما أنه ظل يرتدي جلابيب زاهية ليس من بينها قماش الزفير الـــرخيص – أو النهضة الذي لم ألبس سواه في العشرين عامًا الأولـــى من حياتي – وقد عدت إلى ارتدائه بعد ذلك بسنوات طويلـــة – تفاديا لارتداء ما قد يكون به خيوط صناعية تســـبب لـــي الأذى في جلدي، وعندما كنا نلعب فـــي المدرســـة، أو فـــي الشارع – كان عزيز يقف جانبًا دون لعب تنفيذًا لتوصـــيات متراكمة ومتوالية من أمه وأبيه، مع أن عددًا لا بأس به مـــن النصارى كان يشاركنا هذه الشقاوة التي تصل إلى حد تمزيق الملابس أو فقدها على شواطئ الترع والجـــداول – مـــع أن التنبيهات (الأموية) كانت تتابعنا دائمًـــا بمراعـــاة أن نكـــون مؤدبين.

***

وذات صباح، وكنا ننفث بخار البكور الشتوي مـــن أفواهنا، تدحرجت من بيتنا – القائم خـــارج القريـــة – إلـــى شارعها الكبير، وقبل أن أصل إلى بيت عزيز، تريثت فـــي السير، كان الصباح البارد قد ألقى بالعبوس على عدة وجـــوه تقف، أو تجلس، متناثرة حول البيت، وهو يعني أن ثمة أمرًا

خطيرًا قد حدث، بدا ذلك واضحًا في آهات البخار المندفعة من الأفواه والأنوف برغم طيات التلافيح على الرءوس والرقاب، اثنان من أولاد الحاج عبد العزيز يقفان بجوار الحائط، مندي أبو السعود جالسًا على الأرض وظهره إلى الحائط، علي أبو حليقة – الكريه والمشهور بألفاظه العدائية مع الناس – وقف وحيدًا ينظر إلى الأرض وقد التف بملاءة، أولاد مغاريوس كانوا متناثرين قريبًا وبعيدًا، كان الصباح مختنقًا ذا ملامح كابية.

حاولت أن أستنبئ الأمر دون سؤال، الموت، من الذي مات؟ هل يمكن أن يكون رزق أبو عطية؟ إنه جالس على رأس الحارة، بالتحديد في التفاف حائط بيته مع الشارع الكبير، نعم كان عم رزق جالسًا لكن دماغه كانت بين ركبتيه، يظهر من الرأس عنق يربطها بالجسد، وبين الحين والحين يرفع رأسه وينظر إلى الخلق حوله، ثم يعود إلى دفن رأسه بين ركبتيه.

تراجعت إلى الخلف، أحاول أن أجمع من الملامح والحركة ورمشه العين وانغلاق الأهداب وفحيح بخار الماء من الأنوف والأفواه ما يساعدني على معرفة ما يجري، يأتي

واحد ويهمس في أذن واحد فينبس الثاني بصـــوت خفــيض مكتوم، ولا يلبث هذا الواحد أن يركن جانبًا ممصممصًا شفتيه.

أعوذ بالله ... وبجهــد خـــارق ظللــت أثـــابر فـــي الاستقراء حتى انتبهت إلى ... لا يمكن، عزيز ابـــن عمـــي رزق مات، لكن الذي يموت عندنا يظلون يصرخون عليـــه دون هوادة، والموقع كله – بره وجـــوه – صـــامت ســـاكت ملفوف بملاءة الصباح، لكن الأمر الذي أصبح يقينًا – مـــع خطورته، ومع استبعاد الموت – أصـــبح متعلقًـــا بصـــديقي الجميل عزيز، والذي – كلما تعرضنا لحكاية سيدنا يوســـف الجميل مع نساء منف الجميلات، يبرز وجه عزيز محتويًـــا جمال يوسف حتى اليوم، فما هو الخطر الذي حاق بيوسف، أقصد بعزيز؟؟ كان محظورًا – أو غير لائق – من العيال أن يسألوا في هذه الأمور، لكن زوج خالتي – الشـــيخ ثابـــت – كان يطل من نافذة بيته القريب، والذي ألقى إليّ بالخبر وفمه قد أعوج في مرارة: خطفـــوه، نعـــم: خطفـــوه دون زيـــادة أو نقصان.

***

بعد ذلك بسنوات اكتشفت – أي بعد أن أصبحت أبًا – أن أقسى ابتزاز للأسرة في الريف المصري، ما قد يكون الأبناء مجال نشاطه، إن الولد الذكر سيظل النقطة التي ترتكز عليها آمال وأحلام وأحزان وطموحات مستقبل الأب والأم عندنا، وليس في ذلك تزيد أن الأم التي تفقد ابنًا لها غرقًا أو احتراقًا أو اختطافًا، يقوم الأب بتطليقها وكأنه بذلك يعاقب المهمل الوحيد، ثم هو يقطع الطريق على مصدر الذكريات، وينتشر هذا بين المسلمين دون الأقباط بسبب صعوبة أو استحالة قبول ذلك سببًا للتفريق في شريعتهم، ومع ذلك كل شيء وارد، حيث ظللت ألف وأدور حول لفظ (خطفوه) الذي أطلقه الشيخ ثابت، من الذي خطفه، ولماذا تم خطفه، ولماذا عزيز بالذات، استحالت الإجابة، وكان التجمع قد ازداد أمام بيت عمي رزق وبدأ كبار السن من الرجال يأمرون الناس بالتفرق والذهاب إلى مصالحهم، وكنت ممن تم طردهم مرارًا.

ما كدت أصل إلى المدرسة مقطوع النفس مغلق الصدر، حتى فوجئت بأن الجميع يعرفون كل شيء، عبد الموجود ... خطف عزيز، وقد أرسل في طلب مائة

جنيه فدية، وكان عبد الموجود هذا أسطورة القريـــة، أعــور ذو قلب من حديـــد، اســـتخدمته عـــائلات الشـــناوية ضـــد المعاوضة، ثم أوقفت المهازل والمداهمات، وحط السلام بين هذه العائلات، فبدأ عبد الموجود يمارس القتل لحساب نفسه، وكان من ضحاياه اثنان هما أولاد عمتـــي فاطمـــة: أحمـــد ومحمود، الأول أصيب في كتفه وشـــفي، والثـــاني اجتاحـــه العيار الناري بين الوركين فلم يصب بـــأذى ســـوى ثقـــوب الجلباب، وأهم ما في الأمر أن الاثنين من عائلة القاتل، ولـــم تكن الحكاية قد تطورت حتى وصلت إلى اجتماع كل العائلة – آخر الأمر – ليقتلوه تخلصًا منه، ومن آثار أفعالـــه فـــي العائلات الأخرى، ذلك أن خطف عزيز ابن عمي رزق تـــم في المرحلة الوسطى، أي تلك التي هدأت فيها الأجواء بـــين العائلات المتناحرة.

***

تصورت – كنت في السابعة أو السادسة من عمري – أن الشرطة التي كل يومين ثلاثة تداهم البيـــوت وتغربـــل تراب الفرن وتجس أكوام التبن والعلف، هذه الشرطة التـــي تأتي أحيانًا وقد امتطت الجمال وأعوجت ألســـنتها وأمـــرت

الناس بأسلوب فاحش أن يستخبوا في البيــوت، مــع عــدم التفريــق فــي الخطــاب بــين الــذكور والإنــاث: أنــت يا فرطوسة ... يأمرون بها الرجال ذوي الشوارب، كنت قد تصورت أن العمدة المسلم الذي تتبعه أجزاء من غرب وقبلي البلد، أو العمدة القبطي الذي تتبعه أجزاء من شرق وبحــري البلد أو حتى واحد من مشايخ البلد السبعة، ســوف يحلــون فورًا ليكونوا مع رزق أبو عطية، مثلما فعلوا عندما باظــت قضية ممدوح أبو عثمان بعد تعديل أقوال شيخ الخفراء علي أبو عبد الرحيم، حيث جاء الجميع ليقفوا مهنئين، وسط الطبل والزمر، هيئ لي أن الحكومة كلها لن تنــام إلا إذا جعلتنــا نطمئن على ابن عمي رزق، وكان هذا هاجسًا أوليًا أصــبح يقينًا حينما عدت من المدرسة، لأجــد الموقــف كمــا هــو: مجموعة من الرجال منكسي الرءوس يقفــون أو يجلســون قريبًا من حوائط عم رزق، كان عزيز قد قضي كل الوقــت في دماغي منذ عرفت بمسألة خطفه صباحًا حتى عدت آخر النهار، ظللت ألعب معه، وأحاول أن أقنعه أن يبلبط معي في الترعة، أو أن يطارد الغربان، أو يفعل مثل رمزي جاد الذي كان متخصصًا في سرقة بــيض معامــل كتاكيــت ببــاوي

أو نجيب مغاريوس، وظللت ألح عليه أن يذهب معنـــا إلـــى السوق أو السلخانة، دون جدوى، لقد كان المكان الوحيد الذي يذهب إليه المدرسة فقط.

آخر النهار باع عم رزق البقرة ووليدها، ثـــم بـــاع قراريط البرسيم قبل أن ينمو البرسيم، ثم باع عـــدة عـــروق خشب، وفي اليوم الثاني جمع له محبون عشـــرين جنيهًـــا، كانت النقود أوائل الأربعينات حتى بداية الخمسينيات عزيزة جدًا، وكانت المائة جنيه المطلوبة فدية لعزيزي عزيز الجميل بحساب أكثر من عشرة آلاف جنيه يساوي عصر الـــدولار الحاضر، ثم تدحرجت الأيام ليبيع عمي رزق أوانـــي بيتـــه (كانت من النحاس في ذلك العصر)، ثم بـــاع إنتـــاج ســـتة قراريط قمح – لم تُزرع بالقمح بعد، ومن هنا إلى هنا، فـــي دائرة صعبة وقاسية، وفي اليوم الرابع كانت المائة جنيه قـــد اكتملت، واستلمها الوسيط ليقوم بتسوية الأمر والعودة بالولد.

***

كان ذلك بعد العصر بقليل، وحيثما همـــس الوســـيط السري بالمكان الذي يحتفظ فيه عبد الموجود بالولد، انطلقت من الأفواه آهات الحمد لله، الولد سوف تجدونه تحت نخلات

الشايبة، وحقول منطقة الشايبة تقف شرسة بالغة الضـــراوة، تقع في سهل بين بحر يوسف وترعة البدرمانية، وطول عمر هذه المنطقة مزروعة قصبًا.

غابات القصب تجول فيها العفاريــت وأبــو رجــل مسلوخة والقرود واللبؤات والتنين الذي قتلــه مـــارجرجس أو واحد من هذا القبيل، لكننا – مع ذلـــك – لـــم نســـمع أن شخصا واحدًا، كبيرًا أو صغيرًا، قـــد أصـــابه ضـــرر مـــن الشايبة، تلك التي تقف في مركز كثافتها، نخلتـــان عاليتـــان تشيران إلى هذا الهدوء الكثيف الكامن تحتها.

وتحركت الجموع، المسرع والمبطـــئ، والراكـــب، والقافز، والصامت واللاهث، الكل يهرع وسط الحقول، ثـــم اخترقت الجموع حقول الشايبة، حتى وصلت إلى النخلتين.

***

كان المشهد مروعًا.

عظمتان لا تزال بهما بقايا نسيج لحمي مدمم ناشف، وبعيدًا عنهما كانت جمجمة صغيرة، تكاد تبتســـم مـــن أثـــر أسنانها وقد انفكت إلـــى جـــزءين لا يـــزالان ملتحمـــين ...

ولاشيء آخر، سوى حبل صغير مربوطة بـــه واحـــدة مـــن العظمتين، وملفوف في جذع النخلة ...

وانفلت الولد عزيز من خيالي ليرتـــدي الجمجمـــة، ويجلس في التختة المجاورة، ويقف بعيدًا دون الاقتراب مـــن النار ومياه الترع ... ويتقافز معي في السيارات والقطارات والطيارات.

لم أستطع نسيان عزيز ابن عمي رزق حتى اليـــوم، ولاسيما حينما تهمس أمي: كل واحد مربوط من قفاه، أعـــوذ بالله، وهذا يعني أن لكل واحـــد قـــدره الخـــاص ذا النهايـــة الخاصة، ولن يفلت.

نعم لن يفلت ... حتى لو كان الفاعل عبد الموجـــود نفسه، الذي ظل في القرية – بعد ذلك سنوات طويلـــة وهـــو يتمتم: كل واحد مربوط من قفاه.

الحاجة جليلة

●● أنت – ومثلك كثيرون – لم تــروا الحاجــة جليلة، مع إنكم تعرفونها، أو تدعون أنكم تعرفونهــا، كانــت رؤيتكم للحاجة جليلة سوف تصبح عاملا مؤثرًا في اختصار كثير من اللف والوصف والدوران والتدليل وإشعال النار في جماليات الفم والعيون والخدود، كي تروا جمالا نادرًا ما ينمو في القرى، نوع من الجمال قد يولد تحت نغمات كمان وظل زهور وتغريد بلبل، غير أنه – هذا الجمال – نما هذه المرة وراء جدران غليظة غير مستوية، تخشــى أن تتــواءم مــع أصداغ الباب فتتبعج، مثل امرأة غليظة تحمل مقطفًا غليظًــا وعيونًا غليظة وكلمات غليظة، ثم إن الطابق الأول القصــير لهذا البيت الغليظ يحمل الطابق الثاني – أو الأكثــر أهميــة، حيث ينساب هذا الطابق دون أن يكون غليظًــا أو قصــيرًا أو منبعجًا، ينساب في أناقة بنافذتين كتلك التي تميز بيــوت منطقة الحسين في القاهرة، ووراء واحدة من هــذه النوافــذ كانت الحاجة جليلة.

أنت – وأي واحد – لن يرى الحاجــة جليلــة فــي الشارع ... كنا نراها ونحن عائدون من مدرسة النصــارى،

نلقي بالنظر الممعن إلى النافذة المغلقة، فنرى الحاجة جليلـــة شبحًا كامنًا وراء الشيش، وكنا نعلم أنها ترانا وتبتســـم، لقــد ظلت مشهورة بابتسامتها الوديعة، والتـــي قـــال فيهـــا أحــد الشعراء بيتين أو ثلاثة فربط تقوس حواجبها مـــع انفراجـــة شفتيها مع تألق العيون الواسعة المشعة، وكان واضحا أن ثمة خللا في اتزان الأبيات حال بينها وبين الانتشار، ولاسيما أن الشاعر – أصلا – لم يكن من القرية ذاتها، لكننا – ونحــن ننظر إلى النافذة – كنا متأكدين أن الحاجــة جليلـــة ترقبنـــا، وتبتسم، وأنها تحب أن ترانا عائدين من المدرسة، وأنها تعلم أيضًا أن الشاعر الذي قال فيها أبيات الشعر لم يتناول وجهها فقط، بل غادر العيون والحواجب والخدود والشفتين والـــذقن ذات الغمازة إلى مناطق أخرى في الجسد، بعدها لـــم نعــد نسمع عن هذا الشاعر خبرًا: لا هو ظل في قريتنا، ولا عـــاد إلى قريتهم حتى اليوم.

وأول ما نود أن نؤكده هنا أن الحاجة جليلـــة كيـــان طيب – وبالغ الطيبة، لماذا استخدم كلمة (كيان)؟ لأن الحاجة جليلة ليست بنتًا في العاشرة أو العشرين أو حتى الأربعـــين، إذ أنني أراها في هذا الموقع من النافذة منذ أن كان أبي شابًا

يسحبني من يدي ليشتري لي حلاوة، كما أن الحاجة جليلة ليست امرأة، إذ أنها – وبالتأكيد – لم تتزوج أبدا، ولم نسمع أنها خطبت أو تم فسخ خطبتها، كما أنها – وبالتأكيد أيضًا – لم تذهب إلى الحجاز لأداء فريضة الحج، والغالب أن لقب الحاجة الذي ارتبط باسمها جاء نتيجة لممارسة عادة قديمة في بلادنا، حيث يعلن الأب أو الأم نية أداء الحج المبرور إثباتًا لحمد الله لأنه رزقها بواحدة مثل جليلة ويظل الأمل في الحج قائمًا، حتى يندثر مع مرور الأيام وتوالي الأجيال، ومنذ بكور إنجابها – وهي في اللفة – يربطان اسم الطفلة الوليدة بلقب الحاجة، حتى يصبح جزءًا من اسمها، بل وأحيانًا يدل لفظ الحاجة على القصد مباشرة دون أن يرتبط بالإفصاح عن اسم جليلة، الحاجة جاءت أو خرجت، نعم، طول عمر الحاجة جليلة واسمها يصعب نطقه – أو يستحيل نطقه – دون لقب الحاجة، ولعله من المناسب هنا أن نشير إلى حالة أخرى أكثر دلالة، وهي أن المقدس عبد المسيح – واسمه على اللسان – سيحة – كان متزوجًا من الحاجة ست، والحاجة ست مسيحية قبطية نصرانية، والست هي السيدة في اللغة الشعبية المصرية، لماذا لم يقولوا المقدسة ست؟

ستكتشف يا صديقي أن إيقاع (المقدسة ست) يصبح مختلا ومضطربًا، أما الحاجة ست فهو أكثر امتزاجًا، وانضباطًا، لقد أطلق المسلمون عليها اسم الحاجة ست دون وجل، ولم يكونوا في موقع السخرية إطلاقًا، مع أن أي وافد للقرية كان يتناقش كثيرًا في ذلك، في المقابل فإن كثيرين – وكثيرات – حصلن على لقب المقدسة والحاجة دون زيارة لبيوت الله الحرام، من بينهم كانت الحاجة جليلة.

أبو الحاجة جليلة رجل طيب، لم يكن فلاحًا ولا يحب الزراعة، إنما كان تاجرًا للحبوب، وبالذات (الحياقة) أي الحلبة التي نستخدمها نحن الفلاحين في ضبط طعم خبز (البتاو) بإضافة نسبة معينة من دقيق الحلبة إلى دقيق الذرة الرفيعة – النيلية، وكان للحلبة في بلادنا تجار مختصون بعيدًا عن تجارة كل الحبوب كالقمح والشعير، وكان أبوها قد أنجب عدة بنات أخريات بعد إنجابه الحاجة جليلة، وقد تزوجن جميعًا فور بلوغهن، كانت الحاجة جليلة هي أمهن القائمة على شئونهم فور رحيل أمها خلال وباء الملاريا الذي داهم المنطقة قبل حرب فلسطين الأولى، وكان نجاحها في تزويج أخواتها البنات نعم كبرى جديرة بالإعلان الدائم عنها،

كانت الحاجة – في ذلك العصر – تخرج من بيتهـا ومعهـا واحدة – أو أكثر – من أخوتها، هي التي تشتري اللحم مـن الجزار مع أن ذلك كان مقصورًا على الرجال، وهي التـي تشتري الحشيش للأرانب من سويقة الحشيش، وهـي التـي تذهب لإنهاء أمور ومصالح البيت عند بقال التموين وصانع القباقيب، وهي التي تذهب فتزور من تزوج من إخوتها، ثـم هي التي تطبخ وتنظف البيت، وهي التي تعلق تلك الصـور العريضة على حوائط البيت: صور أبي زيد الهلالي سـلامة وقد شج بسيفه رأس دياب بن غانم، بغض النظر عن عـدم المطابقة التاريخية، ثم هي التي كانت تحب الصور الملونـة التي شاعت في تلك الفترة عن الأميـرات فوزيـة وفتحيـة وفايزة ونسل شاه والملكات فريدة وناريمان، كانـت (آخـر ساعة) و(المصور) تنشران تلك الصور على الأغلفة فتقـوم بالحصول عليها وتلصقها بمادة عجين الحلبة – نعم الحلبة – مرة أخرى – على الحوائط المطلوسة بالطين الناعم، وكـان أبو الحاجة جليلة يحب ذلك، ويتكلم دائمًا عن فرح شاه إيران مع الأميرة فتحية، والذي رأى – فيما يقول – جزءًا منه في القاهرة.

عندما كانت الحاجة جليلة تسير في الشارع، فسوف تلتوي أعناق الجميع، يعرفونها ويبتسمون ويقولون بسم الله الرحمن الرحيم، ليس فقط بسبب جمالها، بل لأن جسدها شامخ مكتنز يعطيك إحساسًا غامرًا بالقوة والثقة. وهو ما جعلها تسير في أناة ترقب اضطراب الأرض خشية الحفر والبقع الطينية، وسواء أكانت في يدها واحدة من أخواتها، أو بعد أن تزوجت جميع أخواتها، فإنما خطوتها الواثقة الأليفة، وعيونها حينما تتجه لآفاق الطريق، يجعلك تتساءل لماذا لم تتزوج حتى الآن؟ وأليست الحاجة جليلة أفضل مليون مرة من هؤلاء اللاتي تزوجن؟؟ لا أحد في القرية إلا وتمنى الحاجة جليلة، والغريب أن التناقض يصل إلى مداه حينما نكتشف أن الجميلات ذوات الشخصية القوية تتساوى مع الدميمات ذوات الشخصية الضعيفة في سوء الحظ، هل يخشى الرجال – اقتناء – أو مصادقة – مثل هذا الجمال القوي؟ – خصوصًا أن الأمر لم يتوقف عند مجرد المشاوير إلى السوق أو الجزار أو بقال التموين، إذ أن الثورة الناصرية جاءت ومعها انفتاح كبير للبنات، كل مخازن البنات في قريتي تقلصت وأفرغت محتوياتها إلى المدارس

والمؤسسات والتدريب على التمريض، حتى الوحدة المجمعة المنشأة حديثًا ألحق بها وحدات لصنع الكليم – السجاد البلدي، واتجهت إليها أطفال القرية، وكانت الحاجة جليلة قد خرجت من بيت أبيها إلى حديث الأمور أكثر جدة وتنوعًا، حضرت لقاءات هيئة التحرير في بيت إسماعيل كامل، وحضرت احتفال القرية بزيارة عضو مجلس قيادة الثورة أنور السادات، ثم الاحتفالات المتوالية التي قامت بها المدارس امتنانًا للثورة ورجال الثورة، ثم خرجت الحاجة جليلة إلى حلقات الاتحاد القومي في بيوت الأثرياء الذين قامت الثورة ضدهم، وحضرت الحفلات التي غنى فيها الشيخ الفخراني، كل شيء في القرية كان يتغير بسرعة مذهلة، توقفت جولات الثأر، والمشاجرات المسلحة، والمصادمات الدامية، وكثر المدرسون والموظفون، والتهمت الجامعات القريبة أبناء القرية وبدأت تفرزهم مهندسين وأطباء ووكلاء نيابة، بعدها، وفي لحظة قدرية غريبة، جاءت النكسة أو الهزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧، والذي سوف يكون أخطر الأحداث التي مرت لها مصر في العصور الحديثة ...

كانت هزيمة مصر – بالذات – قد جـــاءت تتويجـــا لدعاء سري دائم ومستمر ضد عبد الناصر من الفلول الهاربة للجماعات الدينية، لم يقولوا ذلك أيامها، أول من قـــال ذلـــك الشيخ محمد متولي الشعراوي الذي أعلن أنه صلى ركعتـــين بجوار الكعبة شكرًا لله لأنه أحاق الهزيمة بالنظام المصري، هذا ما صرح به في أجهزة الإعلام منذ سنوات قليلة، لكننا – أيام الهزيمة – لم نكن نعرف شيئًا ذا بال عن هؤلاء الـــذين اعتصموا ببيوت الله ليلحق بالوطن الهزيمة المنكرة، غير أن قريتنا واجهت موقفًا – واجهته كل القـــرى أيضًـــا: تضـــخم الجيش وسحب كل الفتيان من المصانع والمؤسسات والحقول ليعوض ما تم تدميره من بشر، واضطربت الحاجـــة جليلـــة اضطرابًا شديدًا، انصدت نفسها وانكسرت وبـــدأت تســـتنيم للجلسة وراء النافذة، كانت النافذة في أول الأمـــر مفتوحـــة، والساحة الواسعة أمام النافذة تعطيها المدى اللازم للنظر إلى الآفاق البعيدة، وكانت الحاجة جليلـــة تجلـــس وراء النافـــذة المفتوحة لتتفرج على الليالي الكبيرة التـــي تعـــودت قريتنـــا إقامتها، أذكر منها بين أكتوبر وآخر ديسمبر ثـــلاث ليـــال،

أي بعد جمع محصول القطن وتسويقه مباشرة، ليلـــة الســـيد البدوي – والذي مقامه في طنطا وسط الدلتا، وليلـــة الســـيد الفرغلي – والذي مقامه في أبو تيج جنوب أسيوط مباشـــرة، وليلة للشيخ أبو العيون – أو واحد من مشايخ منطقتنا – وتبدأ الليلة عادة بعد العصر مباشرة حينما تتجمع طوابير المشايخ الصوفية تحت وقع الطبول ورقــص الخيــول – فـــي دورة استعراضية – تحت ظلال الرايات الخفاقة، وبعدها – قبـــل المغرب – يكون أصحاب الكرامات من المشايخ والأوليـــاء وورثة المشايخ والأولياء قد توزعوا على طبـــالي – جمـــع طبلية – أهل البلد، إذا أن كل صاحب وعد – أي كل صاحب اتفاق بينه وبين أحد الأولياء في الحلم أو العلم – قد نصـــب الطبلية أمام الباب – أي في الشارع، ليأكـــل عليهـــا أبنـــاء الطريقة الصوفية، فيتجمع الناس دون اهتمام بـــأي طريقـــة ليأكلوا ويضحكوا، ثم يتوجهوا – بعد ذلك – إلـــى الســـاحة الكبرى، تلك التي يكون قـــد تـــم تجهيزهـــا بـــأنواع اللهـــو والألعاب: المدفع الذي يندفع بتأثير قوة الـــذراع، المـــراجيح والخيول الخشبية، باعـــة الكنافـــة والبسبوســـة والهريســـة والسمسمية والفولية والعسلية والدردمنة (نوع من الدولســـي

الذي تعرفه أجيالنا) والمشبك والفطاير وسكر النبات وغير ذلك من أنواع لا نراها في أي يوم في قريتنا إلا يوم الليلة، لكن الأكثر جمالا هو نصبات المغنيات والغوازي، إذ كثيرًا ما يأتي من الغروب – أي البلاد الواقعة غربًا تحت سفح الصحراء الغربية – جوقة من اللاتي يقمن بالغناء والتطريب مع استخدام الأغاني الشائعة في الحالات التي يصعب عليهن أداء السيرة الشعبية حسب اختيار جمهور الجالسين على الأرائك، أما الغوازي فقد كانت أجسادهن تتراقص لتثير الفتنة في قلوبنا، كانت وجوه الغوازي وخدودهن قد تألقت تحت عمليات الدهانات ومساحيق التجميل، كن جميلات بحكم المغايرة والاختلاف وليس بسبب جمال أصيل فيهن، وكنا نحن العيال، أو الفتيان، أو الرجال أكثر إلحاحًا على المتعة بمشاهدة الغوازي، وما يقمن به من حركات فجة مدهشة تحت تأثير ما يحدث من النقطة، إذ كثيرًا ما يبالغ بعض رجال القرية في تنقيط الغوازي في نشوة احتساء الزبيب والعرقي وكل المستخلصات المسكرة التي تفنن في الاتجار لها أمين أبو علة، وحتى الكينا التي يبيعها أصحاب الصيدليات في المركز القريب تجد بها دورًا في إثارة النشوة

اللازمة لرفع حالات التبرع القصوى، هذا الهياص والطبل والزمر والصراخ والمتعة والبحث عن العيال التائهين والرقص وخلع أجناب القلوب، يصنع لهذه الليالي طعمًا ريفيًا شعبيًا نادرًا ما تجده في أي مكان في الدنيا.

كانت الحاجة جليلة قد تقلصت وجلست وراء النافذة المفتوحة المطلة على الساحة الواسعة، تستمتع بأضواء الكلوبات وإطلاق النار والمرح، ثم رحل والدها بعد ذلك فقامت بإغلاق الشباك، وكمنت خلفه تنظر وتمعن النظر خلال خصاص وخروم مصاريع الشباك، لم يعد يزورها أحد، ولم تعد تزور أحدًا، كل الذي تفعله الحاجة جليلة أن تجلس وراء النافذة انتصارًا لطقوس ليلة جديدة ...

ثم لم يلبث أن أفتى أحد كبار المشايخ بأن هذه الليالي حرام، وأنها بدعة، وأن الدين الإسلامي ينهانا عنها، وحاول الذين يرون في هذه الليالي مرحًا شعبيًا أن يلتفوا حول فتوى الشيخ دون جدوى.

بعدها تقلصت الليالي، وبدأت تندثر وتصبح حكاية من الذكريات تستحلبها الحاجة جليلة – وهي جالسة وراء خصاص النافذة.

ونسى الناس الحاجة جليلة، وسافرت أخواتهـا إلـى مدن الخليج أو مدن مصر أو أية مدن، وتحولن – مع ليـالي المشايخ – إلى ذكريات ...

قيل إنها كانت تعيش من نقود تركهـا لهـا أبوهـا، أو من معاش أتاحه لها أولاد الحلال، أو من هبات تصلها من أقارب أو أصهار أصابهم ثراء العصر.

وظلت الحاجة جليلة وراء النافذة، نمر عليها ونمعن النظر، ونحس بجمالها الأخاذ لا يزال جمـالا أخـاذًا، وأن الأيام لم تستطع أن تؤثر في حلاوة ملامحها ولا في طولهـا الشامخ ولا في عرضها المتناسق مع طولها ...

برغم أن أحدا لم يعد يذكرها، إلا أن كل واحد كـان يعلم أنها في الموقع نفسه، وفي النافذة نفسها، وأنهـا ترانـا جميعًا، وتبتسم لنا جميعًا، لا يستطيع فـرد فـي قريتـي أن يخترق الساحة الكبرى دون أن يحس بالحاجة جلية وقد رأته، وابتسمت بل وأشارت إليه.

ثم، وفي ليلة صامتة لا أثر فيها حتى لنباح الكلاب، في ذلك الوقت من السحر، أي في هذا الوقت الـذي تكـون

الملائكة قد هجعت والشياطين قـد لاذت بأوكارهـا، انـدفع صراخ القرية، صراخ بدأ في الساحة وداهم نقطة الشـرطة ومآذن المساجد ووسائد النائمين وآخر إرسـال للتليفزيـون وكراريس التلاميذ ومقاعد سهرات الفيديو ...

الحاجة جليلة هبطت مـن مكمنهـا وخرجـت مـن المنزل، مرتدية هذا الرداء الشهير للراقصات، وبيـدها دف ذو دقات مجلجلة وإيقاعات صاخبة، وانعكسـت الأضـواء الخافتة على فستان الرقص، الحاجة جليلة بجسدها السـامق وجمالها الأنيق، توسطت الساحة وبدأت ترقص، رقصة قوية تتأود تحت انكسار الصمت، ويهتز جسدها الأخاذ من الإيقاع فتهتز الأرض، وتنطلق العفاريت من بـين كـوات الـديار، وتندفع الملائكة من بين كوات السماء، ويتجمع الناس خفراء وعساكر ومستيقظين توًا من النوم، ويبدأ الجميـع يحـاولون احتواءها، لكن الحاجة جليلة كانت أقوى من الجميع، بـل إن الذين التفوا حولها وجدوا أنفسهم يصفقون، نعـم يصـفقون ليصنعوا للإيقاع حسًا جماعيًا، والحاجة جليلة ترقص وتتأود وتتمايل، وإذ بالساحة تضيء، ويختطف واحد الدف منهـا، ويبدأ فيواصل الوقع نفسه والإيقاع نفسه، والكل يغني لهـا،

ويصفق لها، ويندمج معها، ويدور حولهــا، الســاحة كلهــا امتلأت بأنواع من البشر والحيوانات والملائكة والشــياطين، والحاجة جليلة ذابت في الوجود، ذابت في أنفاس الكون، قــد تلاشت، تلاشت، تلاشت الحاجة جليلة.

وبدأت الساحة تمتلئ بالضجيج الأحمق الأهوج، وكل واحد يزعم أنه شاهدها تــرقص، فيؤكــد الآخــرون أنهــم يصدقونه.

ومازلنا حين نمر في الساحة ننظر إلى النافــذة، ذات المصاريع المخلخلة، نصفها مفتوح، ونصفها مغلق، لنــزعم بأن الحاجة جليلة، لا تزال كامنة وراء المصاريع المغلقــة، هذه التي لم تروها، مع أنكم تدعون أنكم تعرفونها، فقد كانت رؤيتكم لها سوف تصبح عاملا مؤثرًا في اختصار كثير من اللف والدوران، كي تروا جمالا نادرًا، مع أنكم تحبون دائمًا – أن تصفقوا لها، معتقدين أنها لا تــزال – فــي الحلبــة – مندمجة في الرقص الساحر، مع الشياطين والملائكة.

أمير... الانتقام... الحديث

●● أجمل ما في العالم غير معروف حتـــى الآن، وهي مقولة تتمزق وتتناثر وتتطـــاير فـــي أنحـــاء الطفولـــة والحزن المبكر والحرمان والحظ ويسارب الحقول وظهـــور الحمير والأوهام وقطرات العيون وألوان الكتاتيـــب وبـــؤس الشتاء، ثم الدعاء المطرب الهامس شكرًا – وامتنانًـــا. مـــن عيون الحب الأول، حين يبدأ أول احتكاك لنا مع تسبيلة هذه العيون قبل مرحلة الشقاوة والصبيانية بأسبوع كام.

لكننا – تحت ضغوط الكتب وشاشة السينما وصراع العائلات "الغلبانة بأي مقاييس" وانسحاق الجو الرائق تحـــت حوافر البرد القارس – الشتاء الفقير – نؤجل دائمًـــا أجمـــل ما في عالمنا لأيام مقبلة، وهي تلك التي تظل تداهمنا حتـــى نفاجأ بأنفسنا – مع مرور الزمن الوغد – كما وصفه أستاذنا مهضوم الحق سعد مكاوي – وقد التوت أعناقنا للخلف، بحثًا عما أفسد حياتنا وعمن أفسد حياتنا، كي نبرئ أنفسنا ونصبح شهداء أبرياء يجب أن تقام لنا شواهد قبور الشـــهداء، حتـــى لو كنا مازلنا نعيش ونملأ الأرض صراخًا واحتجاجًا، تتلبثنا روح الكونت دي مونت كريستو الذي أدى به الآخرون إلـــى

السجن فخرج لينتقم، وعليك أن تضيف إلينا هيتكليف بطل مرتفعات ويزرنج، ثم السيدة العجوز في زيارتها الممتعة لقريتها في رائعة الألماني دورنيمات، وكلها نصوص معروفة لا تحتاج إلى ثقافة عميقة "بالمقياس القديم للثقافة قبل مداهمة التليفزيون للجماجم وتفريغها من المعنى الحقيقي لها".

وإزاء كل ذلك، وتحت سطوة الهروب من كثافة جو العاصمة وخبث الأصدقاء ومكائدهم المكشوفة، مع أهمية هذا الذي اكتشفه الدكتور فؤاد زكريا أخيرًا – من أن ذائقة النقد الأدبي تتجه دائمًا – والآن – إلى مصالح خاصة بالغة الهبوط والأنانية الحديثة: ضيقة الأفق بالغة التراقص لأسماء تحقق لها أهدافها المحدودة، فؤاد زكريا قال ذلك بلغته المتحفظة، وهو ما أدى بي – مع ظروف أخرى – إلى الالتفات الدائم إلى الخلف، أنبش في حياتي عن هؤلاء الظالمين القساة الذين أفسدوا حياتي، وكأنني كنت سوف أصبح تكوينا آخر بالغ التهذيب والرصانة مثل جميع أبناء جيلي الموظفين وأصحاب الرتب، هؤلاء الذين يتحركون في هدوء وأناقة وحكمة ودقة، أنظر إليهم حين يبتسمون أو يريدون أن يبدوا رأيا – إن كان لهم رأي – ثم أنظر إليهم

وهم يمتطون ذواتهم وإحساسهم المفرط بأهميتهم القصــوى، وهو ما أثبتت الدهور إنني لا أصلح له بالمرة، فكيف يمكــن أن يتحقق ذلك لواحد مثلي لا يزال يجلــس علــى كــوبري البعيلي، يمص القصب ويأكل الجزر؟

لكن الأمر – أمري – بدأ يتدهور بسرعة، إذ حاولت مرارًا أن أعيد رأسي كي تنظر إلى الأمــام دون الإمعــان للخلف، فاتضح لي أن الأمر صعب، وأنني ما زلــت رهــن سجن قريتي الأبدي، وأن محاولتي الفكاك منه تحتــاج إلــى قوى أخرى لا أعرف كيف أستعين بها، ذات مرة عرفــت – أثناء عملي بالسد العالي في أسوان – أن أمي تبحث لي عن عروسة من بنات الطبقة الوسطى أو العليا في قريتنا – هــذه التي أكتب منها الآن، وأن أهل جميع العرائس المنشودات قد رفضوا دون أن يعلنوا الــرفض الواضــح، أنــه الــرفض المصري القروي الذي يتمثل في شــروط تثيــر الســخرية، واحدة لا تريد الذهاب إلى أسوان "؟؟ ... !!" – أرجو عــدم إلغاء علامات الاستفهام أو التعجب أو الاستغراب – وواحدة تريد ألف جنيه مهرًا، وألفًا أخرى شبكة في عصر لم يكــن المهر يتجاوز مائتي جنيه ومع إلغاء مسألة الشبكة بـــالمفهوم

القائم الآن، وواحدة يرى أهلها أن عملي في السد العالي ليس عملا حكوميًا أميريًا، وكل هذه حجج وعلل ومعوقات لا تريد أن تضع السبب الحقيقي في موقعه الحقيقي، إن عائلة آل مستجاب ليست في المستوى اللائق المناسب لبيت الفار أو الشناوية أو عبد الرجال أو عبد البر، دعك مما حدث لكل هذه العائلات – وغيرها – بعد ذلك أو أثناء ذلك، فلما عرفت بنيات أمي ثرت ثورة جامحة اجتاحت كل أنواع تاريخ العائلات بما فيها عائلة آل مستجاب ذاتها، إن واحدة من قريتي – في ذلك العصر – لم تكن تستطيع أن تتواءم مع حياتي القلقة المتوترة مهما كانت العروسة تملك أرضًا وعقارًا وحسبًا ونسبًا ووجاهة علمية أو اجتماعية قروية، دون الإفصاح عن هذا الذي ظل يفتعل في داخلي من أمور لن تكون في صالح أي طرف، وخصوصًا أن تجربة زواج غيري بالمقاييس نفسها ظلت – حتى الآن – مجرد زواج تحكمه بطاقة التموين وخضار المطبخ دون مواجهة حقيقة لما حدث في الدنيا بعد ذلك، إذ يكفي إنك – وفي النادر – لن تجد أثرًا لمكتبة وكتب وترحال من مكان لآخر – في أي

بيت من بيوت قومنا الأعزاء الشامخة بحوائط الأسمنت كأنها القلاع.

***

ومنذ سنوات فوجئت بنفسي أسعى كي أزور بيوت كل الذين كان بين قوسين في حياتي – حتى لو كانت أمي هي السبب، إنها رغبة عارمة للتفريج عما جال في خاطر أبطال روايات الانتقام، وكانت النتيجة مثيرة للمرح الذي حطم معنى الانتقام إلى مشاهد ضاحكة ... ومبكية أيضًا، واحدة تعاني من مشاكل تواجهها حفيدتها التي تزوجت مبكرة من حفيد لأحد الأصدقاء، وتتمنى أن تجد مساعدة من أحد ليوقف هذه المشاكل، واحدة توقفت فرحتها بلقائي العظيم عند طلب عمل لأصغر عيالها بصفتي كاتبًا له شهرة بين حكام الإقليم، واحدة كانت في حاجة إلى توصية إلى طبيب عيون حتى يعالجها بتكاليف معقولة – أو مجانية – في مستشفي الجامعة "كانت مصابة بالجلوكوما المزمنة – رحمتك يا رب" واحدة ماتت بمرض عضال قبل أن تتزوج، واحدة – تعيش في قصر ضخم – جاءت لزيارتنا مع رجلين من أولادها – الذين لا يعملون تحت سطوة الثراء، ولم تتنبه في شقتي

الصغيرة للمكتبة والكتب المصورة واللوحات، إنما الذي راعها أن ثلاجتنا من النوع المحلي وليست من ذات الماركات أو الموديلات التي تتألق على شاشة التليفزيون، واحدة – آخر الأمر – ظلت مع ابنتها واقفة على مدخل الشقة في حرج لا تريد الدخول والجلوس، من باب التهذيب المتخلف الذي ينص على إثبات دائم للاستغناء عن الآخرين وعدم التطفل عليهم إحياء لعقيدة قديمة حول حالات إثبات الشبع التي قد يجرحها احتساء كوب من العصير.

* * *

خلال تلك السنوات اتضح لي أن بطلا روائيًا حديثًا يجب أن يقوم في نص جديد، يسعى للعودة إلى موطنه الأصلي الذي عذبه كثيرًا كي ينتقم ممن عذبوه وحطموه ودمروه، وإلى غير ذلك من أنواع التخريب المأساوي الروائي، لكنه – حين يواجه الواقع الجديد– يكتشف أن الأمر لا يستحق كل هذه المعاناة، وأن كل عناصر الانتقام تتهاوى أمام هذه النماذج الطيبة الغلبانة، والتي كان من المفروض أن ترفع رأسي كي تتخلى عن النظر إلى الخلف وأن أرجع

فأنظر إلى الأمام، فما الذي يمكن أن تفعله في أبطال مثل كل هؤلاء الذين – أو اللاتي – ينامون ويتحركون في الذاكرة؟

ليصبح الأمر – بعد ذلك – مناسبًا أن أجلس على مشاهد كباري قريتي: أمص القصب وأتضاحك مع القوم، تحت سطوة حكمة أو تعزية للسلوان الدائم: أجمل ما في العالم غير معروف حتى الآن ... وإلى الأبد ...

الفهرس